

ينظم فرع وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد
بمنطقة المدينة المنورة ممثلاً بمركز الدعوة والإرشاد
بالتعاون مع جمعية الهدى والحكمة

الدورة العلمية للمدينة المنورة الثالثة

بجامع سيد الشهداء

شرح القول على الحسنا لتفسير القرآن

للمعلمة
الشيخة
عبد الرحمن بن ناصر السدي
رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ

مُسْتَعْدِدٌ بِمَسْبَأِ الْحُسَيْنِ

حفظه الله وورعاه

الْقَوَاعِدُ الْحَسَنَاتُ لِتَقْسِيمِ الْقُرْآنِ

تَأَلَّفَ
الْشَيْخُ الْعَلَامَةُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ

رَحِمَهُ اللَّهُ

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا.

أما بعد:

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجلُّ من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتمَّ ما قصدنا إلى إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سببًا للوصول إلى العلم النافع، والهدى الكامل.

فاعلم أن علم التفسير أجلُّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها، وأوجبها، وأحبها إلى الله؛ لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن لم يكن ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة، وبه تتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، وطيب الحياة، والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود؛ لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهّدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرّب منها بعدة أمثلة توضّحها، وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط، وكثرة التفاصيل.

ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنّه وكرمه وإحسانه.



القاعدة الأولى في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقاً، وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح، كما قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكُلُّما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعيّن البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها؛ بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدي الأمور وأقومها ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله؛ كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم كانوا إذا قرءوا عشر آيات أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلّت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلوها على الأحوال الواقعة؛ يؤمنون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويطبّقونها على جميع ما يشاهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائلون بها، أو مُخلّون؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟

فيهتدون بعلومه، ويتخلّقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة، موجّه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق، وجدّ واجتهد في تدبّر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته، واستنارت بصيرته، واستغنى بهذا الطريق عن كثرة التكلّفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام

واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه؛ فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب. ومتى علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها وكثرة فوائدها وثمارها. ويلحق بهذه القاعدة:

القاعدة الثانية العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه قاعدة نافعة جداً، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير. وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية، عرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو على سبيل المثال؛ لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها، فقولهم: «نزلت في كذا، وكذا»؛ معناه:

أن هذا مما يدخل فيها ومن جملة ما يُراد بها؛ فإن القرآن - كما تقدم - إنما نزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنى تكون؟! والله تعالى قد أمرنا بالتفكير والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة؛ فلا شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْتُ﴾، آمَنُوا» فأرعاها سمعك؛ فإنه إما خير تُؤمر به، وإما شر تُنهى عنه^(١).

(١) ابن المبارك في الزهد (٣٦)، البيهقي في الشعب (١٨٨٦)

فمتى مرَّ بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعمَّا يستحقه من الكمال، وما يتنزَّه عنه من النقص، فأثبت جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبتته سبحانه لنفسه، ونزَّهه عن كل ما نزَّه نفسه عنه.

وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله، وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزماً لا شك فيه أنه على حقيقته، بل هو أعلى أنواع الحق والصدق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] وحديثاً.

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة، وكذلك في النهي؛ ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل كل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل كل الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها، والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقته.

القاعدة الثالثة

الألف واللام الداخلة على الأوصاف،

وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه

وقد نصَّ على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان؛ فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] يدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، إلى آخرها وأنه بكمال هذه

الأوصاف يكمل لصاحبها ما رُتّب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يُفقد، وهكذا كل وصف رُتّب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك: كل وصف نهى الله عنه، ورتب عليه وعلى الاتصاف به عقوبة وشرًا ونقصًا يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور.

وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، عام بجنس الإنسان، فكل إنسان هذا وصفه، إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢] إلى آخرها.

كما أن قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] دال على أن كل إنسان عاقبته ومآله إلى الخسار ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالْبَصِيرِ﴾ [العصر: ٣]. وأمثال ذلك كثير.

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى؛ فإن في القرآن منها شيئًا كثيرًا، وهي أجل علوم القرآن، بل هي المقصد الأول للقرآن؛ فمثلاً يخبر الله عن نفسه أنه الرب الحي القيوم، وأنه الملك، والعليم، والحكيم والعزیز، والرحيم، والقدوس، السلام، والحميد، المجيد.

فـ «الله» هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الربوبية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا بشر، ولا ملك، بل هم جميعًا عبيدون مربوبون لربهم خاضعون لجلاله وعظمته.

فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًا ولا شريكًا لله في عبادته وإلهيته، فربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً، وهم يشكرونه على ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه وليًا ولا شفيعًا، فالإلهية حق له سبحانه على عباده بصفة ربوبيته.

وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وله الملك الكامل، والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم ممالك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدريّة، والشرعية، والجزائية، وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن، والظواهر، والخفيات، والجليات، والواجبات، والمستحيلات، والجاترات، والأمر السابقة، واللاحقة، والعالم العلوي، والسفلي، والكليات، والجزئيات، وما يعلم الخلق، وما لا يعلمون ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه، وقدره، وخلقاه، وجميع ما شرعه، لا يخرج عن حكمته مخلوق، ولا مشروع، وأنه العزيز، الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه؛ عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذل، ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربهم.

وأنه الرحمن الرحيم، الذي له جميع معاني الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين، تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وأنه القدوس، السلام، المعظم، المنزه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ند من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى، اعتبرها بهذه القاعدة الجليّة يفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق ذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] يشمل جميع أنواع البر والخير. وتشمل التقوى جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المخوفات والمعاصي والمحرمات.

والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم ويوقع في المعصية، كما أن العدوان اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي على الناس في الدماء، والأموال، والأعراض، والتعدي على مجموع الأمة وعلى الحكومات والتعدي لحدود الله.

والمعروف في القرآن: اسم جامع لكل ما عُرف حسنه وجماله شرعاً وعقلاً. وعكسه المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبّه النبي ﷺ أمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها؛ إذ علمهم أن يقولوا بالتشهد في الصلاة في قول المصلّين: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فقال: «فَإِنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١)، وأمثلتها في القرآن كثيرة جداً.

القاعدة الرابعة

إذا وقعت النكرة في سياق النفي،
أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام دلّت على العموم

كقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال، والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر، والخفي، والجلي؛ فلا يجعل العبد لله نداً ومشاركاً في شيء من ذلك، ونظيرها قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩] يعم كل

(١) البخاري (٨٣١)، مسلم (٤٠٢).

نفس، وأنه لا تملك شيئاً من الأشياء لأي نفس أخرى مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧] فكل ضرر قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائناً ما كان كشفه بوجه من الوجوه، ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلية في قضاء الله وقدره.

وقوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]. وقوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب أو دفع مكروه، فإن الله هو المتفرد بذلك وحده.

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]. وإذا دخلت (من) صارت نصاً في العموم؛ كهذه الآية: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] وقوله في غير آية: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، هود: ٥٠، المؤمنون: ٢٣] ولها أمثلة كثيرة جداً.

القاعدة الخامسة

المقرر أن المفرد المضاف

يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع

فكما أن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها يشمل كل أم انتسبت إليها وإن علت، وكل بنت انتسبت إليك وإن نزلت، إلى آخر المذكورات، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فإنها تعمُّ الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضل وإحساناً وأنت قد أتيت ما أتيت منه، وأوقعته وأخلصته لله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] على أحد القولين: أنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج، اتخذه معبداً.

وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]. وهذا شامل لكل ما كان عليه إبراهيم من التوحيد والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعمُّ من ذلك وأشمل قوله تعالى، لما ذكر الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة، والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم.

وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه، وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا يعمُّ جميع ما شرعه لعباده فعلاً، وتركاً، اعتقاداً وانقياداً، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] لكونهم هم السالكون له، فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين ما اتصفوا به من العلوم، والأخلاق، والأوصاف، والأعمال.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادات، الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية.

كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله كقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] وكقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] يدل على أنه وفي جميع مقامات العبودية؛ حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً كُلُّنَا بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] يشمل جميع أوامره القدريّة الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

القاعدة السادسة

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد، ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلهية وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل اتفقت على هذا الأصل الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يدن بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده، فعمله باطل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ويدعو العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن المنفرد بالخلق والتدبير، والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، هو الذي يستحق العبادة وحده، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي

قدرة على خلق، ولا نفع، ولا دفع ضرر عن أنفسهم فضلاً عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً، ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يمتدح به ويشني على نفسه الكريمة، من تفرّده بصفات العظمة، والمجد، والجلال، والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك أحق من أخلصت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة، ويقرّر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وتارة يقرّر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الواجب شرعاً، وعقلاً، وفطرة، على جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك، وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلاً.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وأشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك، والله أعلم.

القاعدة السابعة

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير قرّره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ، فأخبر أنه صدّق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء هي في محمد ﷺ، وما نُزّهوا عنه من النواقص والعيوب فمحمد أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه،

وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب، فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب، وهذا الدين، وفاقها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره.

وقرّر نبوته بأنه أمّي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا، ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوله على ربه، أو أن يكون على الغيب ظنينًا.

وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرّر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطوّلة على الوجه الواقع الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثّل قوله تعالى، لما ذكر قصة موسى مطوّلة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصاص: ٤٤] وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصاص: ٤٦] ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطوّلة قال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول بما أوحى إليه تفصيلًا صحيح به أكثر الأخبار والحوادث، التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة؛ بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير حتى ما يتعلق منها بعبسى وأمه وولادتهما ونشأتهما، وبموسى وولادته ونشأته؛ كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن.

فقص ذلك على ما وقع وحصل مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته ولا ممن كانوا بعد ذلك - أن يكذبوا بشيء منها فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقًا.

وتارة يقرّر نبوته بكمال حكمة الله وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله، ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمة ورحمة العزيز الحكيم، وأن من قدح في رسالته، فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض، من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكلمه به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عالٍ سامٍ فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكملاه؛ فمن عظمت صفاته وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها الصدق، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقرّرها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين، إما باسمه العلم، أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته، وأوصاف دينه.

وتارة يقرّر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية، والغيوب المستقبلية، التي وقعت في زمانه، والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلو لا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقرررها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجدهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه، ويمنعه، وينصره!! وما ذاك إلا لأنه رسوله حقاً، وأمينه على وحيه.

وتارة يقرّر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وتحذّي أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا، ونكصوا، وباءوا بالخيبة والفشل!! وهذا القرآن أكبر أدلة رسالته، وأجلّها، وأعمّها.

وتارة يقرر رسالته بما ظهر على يديه من المعجزات، وما جرى له من الخوارق والكرامات الدال كل واحد بمفرده منها - فكيف إذا اجتمعت - على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ﴿يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٢ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق، وحنؤه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة وبرًا وإحسانًا إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه، وقررها بعبارات متنوعة ومعان مفصلة، وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء، والله أعلم.

القاعدة الثامنة

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد، وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرره بطرق متنوعة:

منها: إخباره، وهو أصدق القائلين عنه، ومع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه؛ كقوله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١].

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء؛ فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها: تذكيره العباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا لا بد أن

يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة، بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياءه الأرض الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحيها سيحيي الموتى. وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المفكرون ذلك - ولن يقدرُوا على إنكاره - فلا شيء يستبعدون إحياء الموتى؟

وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به ولا يحسن أن يترك خلقه سُدى مُهْمَلِينَ، لا يُؤْمَرُونَ، ولا يُنْهَوْنَ، ولا يُثَابَرُونَ، ولا يعاقبون!! وهذا طريق قرّر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرّر به البعث، ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية، والقرون الغابرة، وكيف نجّى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم، المنكرين للبعث، ونوّع عليهم العقوبات، وأحل بهم المثالات، فهذا جزاء معجّل، ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ومن ذلك ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة، والألوف من بني إسرائيل، والذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى ابن مريم للأموات، وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار؛ ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لا بد أن يردوا دار القرار، إما الجنة أو النار. وهذه المعاني أبدأها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

القاعدة التاسعة في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي: بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب. ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها، فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشر بالوصف الذي مَنَّ عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، واتركوا كذا؛ لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه، ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم، من امثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلُّق بكل خلق حميد، والتجنب لكل خلق رذيل؛ فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي؛ ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلَّت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، وهذا أحدها؛ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: يا أيها الذين آمنوا، أو يعلق فعل ذلك على الإيمان، وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، واتركوا كذا. أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمَنَّة عليهم بهذه المَنَّة التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذا.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيهِ.

وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة، العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة، في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، ويتعبدوا له وحده ويدعوه بأسمائه الحسنى، وصفاته المقدسة، فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير وإجلال وإكرام، وتودُّد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك لأجل أن يتخذوه وحده ولياً وملجأً وملاذاً ومعاداً، ومفرجاً إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليته الخاصة تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيهِ ويغرُّهُ حتى يُفَوِّتَهُ المنافع والمصالح، ويوقعه في المهالك، وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثُّهم على ذلك، ويحذِّرهم من التشبه بأهل الغفلة، والإعراض، والأديان المبدلة؛ لثلاث يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام، كقوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ

الْأَمْدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

القاعدة العاشرة في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم

يدعوهم إلى الدين الإسلامي والإيمان بمحمد ﷺ بما يضعه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ؛ ليهتدي من قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند. وهذه أعظم طريق يُدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام؛ فإن محاسن دين الإسلام، ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه؛ فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم وما يحتجون به، فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أخذات الأمم، وعقوبات الدنيا، وعقوبات الآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة، ويحذّرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء؛ فإنهم رؤساء الشر ودعاة النار، وأنهم لا بد أن تقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول، ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصادقتهم وموالاتهم ستبدل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامثال أمره، واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام؛ ليتبين ويتضح ما يجب إثارة، وما يتعين اختياره.

ويدعوهم بالتي هي أحسن، فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعدّهم بالعقوبات الصوارم، ويبيّن للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً، أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد، ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحقّ طُبِعَ على قلوبهم، وخُتِمَ عليها، وسدّ عليهم طرق الهدى؛ عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم، وهذه المعاني الجزيلة مبسوبة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبّر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.

القاعدة الحادية عشرة

**كما أن المفسّر للقرآن يراعي ما دلّت عليه ألفاظه مطابقة
وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني
وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرّح اللفظ بذكرها**

وهذه القاعدة من أجل قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر، وصحة قصد؛ فإن الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وما تَضَمَّنَه من المعاني، وما يتبعها ويتقدمها وتتوقف هي عليه؛ ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا ففكّر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكّر فيما يترتب عليها، وما يتفرّع عنها، وينبني عليها وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه،

حتى يصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة؛ فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق؛ ذلك كله حق ولا بد.

فمن وفق لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقاً ونوراً، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة والأخلاق السامية والآداب الكريمة العالية؛ ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها في أسماء الله الحسنى: «الرحمن الرحيم»، فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمن وسعة رحمته، فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين، عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته؛ لتوقف الرحمة على ذلك كله، ثم استدلت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة؛ ولهذا يعلل تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه؛ لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات كلها إلى أهلها استدلت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك، وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدلت بذلك على أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار لا بد أن يكون عالماً بما يحكم به، فإن كان حاكماً عاماً فلا بد أن يحصل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين حيث أمر الله أن نبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها، فلا بد أن يكون عارفاً بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق إلى الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد؛ فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة، ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمثل الجاهل الأمر

الذي لا يعرفه، أو يتجنب الأمر الذي لا يعرفه؟^(١)

وكذلك أمره لعباده أن يأمرُوا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ويتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر ليأمرُوا بهذا، وينهوا عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب؛ فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به، والعلم بضد ذلك متقدم على تركه لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصدًا وتقربًا وتعبدًا^(٢).

ومن ذلك: الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك: الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلم الرمي بكل ما يرمى به، والركوب لكل ما يركب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية وسياسية وصناعية ومالية ونحوها.

ومن ذلك: أن الله استشهد بأهل العلم على توحيدِهِ، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وهذا يدل على عدالتهم، وأنهم حجة من الله تعالى على من كذب، بمنزلة آياته وأدلتها.

ومن ذلك: سؤال عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم للمتقين إمامًا يقتضي سؤالهم الله جميع ما تتم به الإمامة في الدين؛ من علوم ومعارف جليلة وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربه شيئًا سؤال له ولما لا يتم إلا به، كما إذا سأل العبد الله الجنة واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلى هذه ويبعد من هذه.

ومن ذلك: أنه أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يصلح عمل المفسدين، فيستدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم،

(١) كمن نشأ على بدعة يظنها من الدين، أو تعاظم أمرًا محرمًا يعتقد إباحته!!

(٢) أي: إنه لا يمكن أن يتحقق الكف عن المنكر والشر تقربًا إلى الله وتعبدًا بتركه إلا بعد العلم بكونه منكراً.

وكل أمر يعين على ذلك، فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله: ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال، وما يتوقف على ذلك ويتبعه من الاستعداد والتمرن على أسباب الشجاعة، والسعي في القوة المعنوية، من التآلف واجتماع الكلمة ونحو ذلك.

ومن ذلك: الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، ووجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام والفطر والحج بالأهلة وغيره إبلاغها بالأصوات، والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك كالبرقيات ونحوها، وكذلك يدخل فيه كل ما أعان على إيصال الأصوات إلى السامعين من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها، فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال به والانتفاع به، وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه، أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئاً منه، فإنه يردُّ بما تشهد به العقول جملة وتفصيلاً، أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه، فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك؛ فإنه مهما توسعت الاختراعات، وعظمت الصناعات، وتبحرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس في هذه الأوقات ما كانوا يجهلون قبل ذلك، فإن القرآن - ولله الحمد - لا يخبر بإحاطته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارة تدل عليه. وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في غير هذا الموضع، والله أعلم وأحكم، وبالله التوفيق.

القاعدة الثانية عشرة الآيات القرآنية التي يفهم منها قصار النظر التعارض

يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه، وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون، ويحاجون، ويعتذرون، ويعترفون. فمحمل كلامهم ونطقهم أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويُقسمون على ذلك، ثم إذا خُتم على ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم، أخرجوا فلم ينطقوا.

وكذلك: الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه، فالنفي واقع على الكلام الذي يسرههم ويجعل لهم نوع اعتبار، وكذلك النظر، والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع؛ فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راضٍ عنهم، والإثبات يوضح أحوالهم، ويبين للعباد كمال عدل الله بهم إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك: أن في بعض الآيات أخبر أنه: ﴿لَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]. وفي بعضها أنه يسألهم: ﴿أَتِنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢] و﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ويسألهم عن أعمالهم كلها، فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة؛ فإنه لا حاجة إلى سؤالهم مع كمال علم الله، وإطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وجليل أمورهم ودقيقها. والسؤال المثبت واقع على تقريرهم بأعمالهم، وتوبيخهم،

وإظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة، وفي بعضها أثبت لهم ذلك؛ فالمثبت: هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس، كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿[عبس: ٣٤، ٣٥] إلى آخرها. والمنفي: هو الانتفاع بها؛ فإن الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة، فأخبر تعالى أنه ﴿لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يَقْلِبْ سَلِيمٌ ﴿[الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين لأبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح، زادهم من فضله وكرمه من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئاً.

ومن ذلك: الشفاعة؛ فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدتها في بعض المواضع بإذنه، ولمن ارتضى من خلقه، فتعين حمل المطلق على المقيد، وأنها حيث نُفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه، لمن رضي الله وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر في آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين، ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿[يونس: ٩٦، ٩٧] وحمل المثبتات على من لم تحقق عليهم الكلمة، وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرْد على من ارتكسوا في حماة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه العليّ الأعلى، وأنه فوق عباده، وعلى عرشه،

وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا، وأنه مع الصابرين، والصادقين، والمحسنين، ونحوهم؛ فَعَلُوهُ تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته، ودُنُوهُ ومعِيَّتُهُ لعباده؛ لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد، فهو على عرشه عَلَيَّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم، ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وما يُتوهم بخلاف ذلك، فإنه في حق المخلوقين.

وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوهم فهي معية أخص من المعية العامة؛ فإنها تتضمن محبتهم، وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب، فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاته الكافرين، وعن مودّتهم والاتصال بهم، وفي بعضها: الأمر بالإحسان إلى من له حقّ على الإنسان منهم، ومصاحبتهم بالمعروف، كالوالدين والجار ونحوهم، فهذه الآيات العامّات من الطرفين قد وضّحها الله غاية التوضيح في قوله: ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴿[الممتحنة: ٨، ٩]، فالنهي واقع على التولي والمحبّة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع على الإحسان، لأجل القرابة، أو لأجل الجيرة والإنسانية على وجه لا يخلّ بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات، وفي بعضها: أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها، فهذه الآية تفسّر المراد، وأن خلق الأرض متقدّم على خلق السماوات، ثم لما خلق الله السماوات بعد ذلك دحا الأرض، فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومن ذلك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلّق علمه ببعض أعمال العباد وبيعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل،

سواء كان خيرًا أو شرًا، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة ولا قدرة على الجهاد باليد، والآيات الأخر حين قووا وصار ذلك عين المصلحة، والطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم قدرته، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين: إثبات التوحيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسببات، والأمر بالمحسوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوى الطرفين، فيستفيد المؤمن الجِدُّ والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة، وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وألا يتكل على نفسه في أمر من الأمور، بل يتكل ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصاب من سيئة فمن نفسه؛ ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمَحَابَّ تقع بمحض فضله وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد؛ فإنه هو الذي أنعم بالأسباب، وهو الذي يسرها، وأن السيئات - وهي المصائب التي تصيب العبد - فإنما أسبابها من نفس العبد ويتقصيره في حقوق ربه، وتعدّيه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدر لها، فإنه قد أجزاها على العبد بما كسبت يدها، ولهذا أمثلة يطول عدّها.

القاعدة الثالثة عشرة

طريقة القرآن في الحجّاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها، وأدلها على

إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه، ولا إزعاج، فتأمل حاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المنفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع، والأبصار، والعقول، والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم. وأن أحدًا من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع؛ فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك، واعترافه به، لا بد أن ينقاد للدين الحق الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها، وكثيرًا ما يحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بالزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده؛ فانظر إلى هذا البرهان كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى أنه لا تنبغي العبادة إلا لمن هذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن نفسها فضلًا عن عابديها شيئًا، وقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسولهم ما لا يُستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ، الذي جاء مصدقًا لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعها واحد؛ وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم؛ لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذته الناس بوحى شياطين الإنس والجن من آلهة فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثرًا من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية، ولا ينبغي أن تعطى إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة، وألا يعبد إلا بما أحب وشرع.

وينقض على رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة، وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، بيان ما يضاد ذلك من أحوالهم، وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن

صدق رسوله محمد ﷺ وحقيقة هذا تدفع بمجرد ما جميع الشبه المعارضة له، فماذا بعد الصدق إلا الكذب، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وهذا الأصل في القرآن كثير؛ فإنه يفيد في الدعوة للحق، ورد كل باطل ينافيه. ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئاً من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب وهذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين، ويأمر نبيّه بمباهلة^(١) من ظهرت مكابرتة وعناده، فينكصون عنها؛ لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، وأنهم لو باهلو لهلكوا.

وفي الجملة لا تجد طريقاً نافعا فيه إحقاق الحق، وإبطال الباطل، إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه.

القاعدة الرابعة عشرة

حذف المتعلق المعمول فيه يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جداً، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جلية، وذلك أن الفعل، وما هو في معناه، متى قيّد بشيء تقيّد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح

(١) المباهلة: هي اللعنة، ومأخذها من الإبهال وهو الإهمال والتخلية؛ لأن اللعن والطرود والإهمال من وادٍ واحد، ومعنى المباهلة: أن يجتمعوا إذا اختلفوا فيقولوا: بهلة الله على الظالم منا. الفائق في غريب الحديث ٤٥ / ١.

بالمُتَعَلِّقَات، وأجمع للمعاني النافعة؛ ولذلك أمثلة كثيرة جدًا:

منها: أنه قال في عدة آيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فيدل ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه، وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، ولعلكم تذكرون فلا تنسون ولا تغفلون فتكونوا دائماً متيقظين مرهفي الحواس تحسون كل ما تمررون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي.

ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه، وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام؛ ولهذا كان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي: لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به، ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة، وتتقون وتتجنبون المفطرات والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم مما تكرهون وتتخلّقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ، مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أي: المتقين لكل ما يُتَّقَى مما يقتل الإنسانية الكريمة من الغفلة والجهل والتقليد والكفر والفسوق والعصيان، المتقين الآخذين بكل أسباب القوة على شكر الله بأداء الفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي: إن الذين كانت التقوى وصفهم، والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهم، متى زَيْنَ لهم الشيطان بعض الذنوب، ولبس عليهم الطريق وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى

المتاب، إجلالاً لعظمة الله وما يقتضيه، وحرصاً على نعم الله والهدى والإيمان، وما توجبه التقوى.

وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص، وما تسلبه من الكمالات، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ من أين أتوا، مبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح، والرجوع إلى صراط الله المستقيم، فعادوا إلى مرتبتهم، وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

وكذلك: ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين، بلفظ «المؤمنين»، وبلفظ: (إن الذين آمنوا) ونحوها، فإن حقيقة معنى كلمة إيمان؛ التصديق الحاصل عن علم وفهم وفقه لمن يكون منه هذا الإيمان؛ بأي شيء يوجب له، ولا بد إذعاناً وانقياداً لما يدعو إليه هذا الإيمان بذلك الشيء، ومن ذلك قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧].

فإذا فهمت هذا علمت أن الإيمان يقصد منه في القرآن: الإيمان بسنن الله وآياته في الأنفس وفي الآفاق، والإيمان بنعم الله وآلائه، وأنها من العليم الحكيم الذي ما خلق شيئاً لعباً ولا باطلاً، ولا أنزل ولا شرع شيئاً لعباً ولا باطلاً، وأن كل ذلك بالحق الثابت الذي لن يتغير ولن يتبدل، فعرفت بذلك أنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من السنن والآيات الكونية والعلمية والأصول والعقائد والأعمال والأحكام، مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات؛ مثل قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] ونحوها.

وكذلك: ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقاً، يدخل فيه كل صلاح في الدنيا والدين، كما يدخل في النهي كل فساد كذلك.

وكذلك: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿وَأَحْسِنُوا﴾، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦] ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يدخل في ذلك كله الإحسان في سنن الله وآياته ونعمه وآلائه ليثمر ذلك الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه،

فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان، من قول، وفعل، وجاه، وعلم، ومال، وغيرها.

وكذلك: قوله تعالى: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] فحذف التكاثر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة من الرياسات، والأموال، والجاه، والضيعات، والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس الغافلة عن حكمة الله وسنته، فيلهيها ذلك عن طاعة الله.

وكذلك: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] أي: في خسارة لازمة من جميع الوجوه، إلا من اتصف بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والصبر.

وقوله: ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فذكر المسئولين، وأطلق المسئول عنه؛ ليعم كل ما يحتاج العبد أن يعلمه.

وكذلك: أمره تعالى بالصبر، ومحبه للصابرين، وثناؤه عليهم، وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع؛ ليشمل أنواع الصبر الثلاثة: وهي الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة. ومقابل ذلك: ذمه للكافرين والظالمين والفاسقين والمشركين والمنافقين والمعتدين ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء؛ ليشمل ذلك جميع المعنى.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُخْضِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] ليشمل كل حصر ومنع.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ زُرُبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله، وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة لطالت، ولكن قد فتح لك الباب فامش على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

القاعدة الخامسة عشرة جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات لطمأنة القلوب وزيادة الإيمان

وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك:

النصر، قال في إنزال الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

وأعم من ذلك كله قوله: ﴿إِلَّا إِلَٰهَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُشْرِكُونَ﴾ [١٣] ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] و﴿الْبُشْرَىٰ﴾ هي: كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد لهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الشاء الحسن، والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف، والتوفيق، للهدى والعلم والإيمان والتيسير لليسرى، وتجنبيهم العسرى.

ومن ذلك، بل من ألطف ذلك: أنه يجعل الشدائد مبشرة بالفرج، والعسر مؤذنا باليسر، وإذا تأملت ما قصه عن أنبيائه وأصفياه، وكيف أنه لما اشتدت بهم الحال، وضائق بهم الأرض بما رحبت ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ يأتيهم الجواب من لطف الله بهم ومن إيمانهم به وبحكمته ورحمته وأخذهم سبيل سننه التي جعلها أسبابا مؤدية إلى النصر، فيجيهم الحق من كل ذلك ﴿إِلَّا إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرْبًا﴾ [البقرة: ٢١٤] رأيت

من ذلك العجب العُجاب. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].
﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال ﷺ: «وَاعْلَمَنَّ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ
مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).
وأمثلة ذلك كثيرة، والله أعلم.

القاعدة السادسة عشرة حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ [سبأ: ٥١].
﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠].
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره؛ ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه
لهوله، وشدته، وفظاعته، لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ، ولا أن يدرك بالوصف.

ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥].
أي: لو علمتم علم اليقين؛ لَمَا أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط، والغفلة، واللهو.

(١) أحمد ٣٠٧/١، الطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، البيهقي في الشعب (١٠٤٣).

القاعدة السابعة عشرة

بعض الأسماء الواردة في القرآن الكريم
إذا أُفرد دلَّ على المعنى العام المناسب له، وإذا قُرن
مع غيره دلَّ على بعض المعنى، ودلَّ ما قُرن معه على باقيه

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: «الإيمان» أفرد وحده في آيات كثيرة، وقرنه مع العمل الصالح والصفات
الكريمة في آيات كثيرة، فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين، وشرائعه
الظاهرة والباطنة؛ ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا
دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان، وعمل
القلب واللسان والجوارح. والآيات التي قُرن الإيمان فيها بالعمل الصالح كقوله: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧] يُفسَّر الإيمان فيها: بما في القلوب من
المعارف، والتصديق، والاعتقاد، والإنابة. والعمل الصالح: يفسر بالقيام بجميع الشرائع
القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البر» و«التقوى»، فحيث أُفرد البر دخل فيه امثال الأوامر واجتناب
النواهي، وكذلك إذا أُفردت التقوى؛ ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الإطلاق
الثواب المطلق، والنجاة المطلقة، كما يرتبه على الإيمان. وتارة يفسر أعمال البر بما يتناول
أفعال الخير، وترك المعاصي. وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله:
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴿[آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] إلى آخر ما ذكره من أوصاف المتقين التي

لا تتم حقيقة التقوى إلا بها. وإذا جمع بين البر والتقوى مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] كان البر اسمًا جامعًا لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأفعال، الظاهرة والباطنة. وكانت التقوى اسمًا جامعًا يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ «الإثم» و«العدوان»، إذا اقترنا فُسر الإثم: بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه. والعدوان: بالتجرؤ على الناس في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم. وإذا أُفرد الإثم دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه، أو بينه وبين الخلق. وكذلك إذا أُفرد العدوان.

وكذلك لفظ «العبادة» و«التوكل»، ولفظ «العبادة» و«الاستعانة» إذا أُفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهرًا وباطنًا، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل، والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فُسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفُسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها، وحصول جميع المنافع، ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك «الفقير» و«المسكين» إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر كما في أكثر الآيات، وإذا جُمع بينهما كما في آية الصدقات وهي قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فُسر الفقير بمن اشتدت حاجته، وكان لا يجد شيئًا، أو يجد شيئًا لا يقع منه موقعًا. وفُسر المسكين بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب، والتمسك به، وهو: اتباعه، يشمل ذلك: القيام بالدين كله، فإذا قُرنت معه الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] كان ذكر الصلاة تعظيمًا لها، وتأكيدها لشأنها، وحثًا عليها، وإلا فهي داخلية في الاسم العام، وهو التلاوة، والتمسك به، وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة

**في كثير من الآيات يخبر بأنه يهدي من يشاء،
ويضل من يشاء، وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب
المتعلقة بالعباد، الموجبة للهداية، أو الموجبة للإضلال، وكذلك
حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره.**

وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، يدل ذلك على كمال توحيده، وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به في حصول ما يحبون منها، وفي دفع كل ما يكرهون، وألا يسألوا أحداً غيره، كما في الحديث القدسي «يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»^(١)، إلى آخره.

وفي بعض الآيات يذكر فيها أسباب ذلك؛ ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلخوا النافع، ويدعوا الضار، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٦﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ ﴿٨﴾ فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ ﴿٩﴾﴾ [الليل: ٥ - ١٠] فبين أن أسباب الهداية والتيسير: إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلق وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك. وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ [المائدة: ١٦] وقوله:

(١) مسلم (٢٥٧٧).

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠] فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسناً، ومن يرغب في الخير واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة وتمرد على الله وتولى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين. وكذلك قوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْقِدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة والتي تحقق بها كلمة العذاب، كقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧] وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم ذكر الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وأعمُّ من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً، وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله، كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْآثَقَىٰ﴾ [١٥] الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [١٦] وَسَيُجَنَّبُهَا الْآثَقَىٰ﴾ [١٧] الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى﴾ [الليل: ١٥-١٨] وقوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل مع لزوم التقوى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وانتظار الفرج والرزق، كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وبكثرة الذكر والاستغفار: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣] ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١١]. فأخبر أن الاستغفار سبب يستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر واليسير للعسرى. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها فالزمه.

القاعدة التاسعة عشرة

ختم الآيات بأسماء الله الحسنى

يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة، وتدل على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبطة بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله، ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف وأشرف العلوم، تجد آية الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر. ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات في هذا، ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها، قال تعالى: ﴿فَسَوِّهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] فذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض

والسماوات يدل على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فخلقه للمخلوقات وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربهم في ذلك، فلما خلق آدم، وعلمه أسماء كل شيء، مما جعله الله له وبين يديه وعجزت الملائكة عن معرفتها، وأنباهم آدم بها ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] فاعترفوا لله تعالى بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله، وفي هذا أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختّم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين - الدالين على علم الله بآدم، وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة - من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّٰثَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. وختّمه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته وتوفيقه وحلمه، فمناسبة جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها سبحانه فيرجعون في كل شئونهم وأمورهم إلى ربهم فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم، ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانياً حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] أي: أقبل بقلوبهم عليه؛ فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن

لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النفس الأمارة وركبها العدو المبين ببهيميتها وجهلها مطية؛ فإنها لا تأمر إلا بالسوء والفحشاء إلا من رحم الله فأعاده من ببهيميتها وجهلها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته، وتفرد به بالملك فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿البقرة: ١٠٦، ١٠٧﴾ وفي هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود، وإعلام أن نسخه لما ينسخه هو من آثار قدرته وتام ملكه وحكمته؛ فإنه تعالى يتصرف في عبادته، ويحكم بينهم في أحكامه القدريّة وأحكامه الشرعية، وهي كلها بالحق والعدل والحكمة البالغة.

ولما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبلية، ومحيط علمه بما في التوجه إلى القبلة من الحكمة، ومحيط علمه بنبأت المستقبلين لكل جهة من الجهات إذا أخطأوا القبلة المعينة عن غير قصد ولا عمد فحيث ولي المصلي منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل؛ حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويعجب دعاءهما؛ فإنه يُراد بالسميع في مقام الدعاء - دعاء العبادة، ودعاء المسألة - معنى المستجيب، كما قال الخليل في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وأما ختم قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] أي: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابعة، ففيه تمام عزتك، وكمال حكمتك، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سُدى هملًا، لا يرسل إليهم

رسولاً، فحقق الله حكمته ببعثته خاتماً كما حقق حكمته ورحمته ببعثته إخوانه المرسلين من قبله؛ لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها - قدرُها وشرعُها - لا تقوم إلا بعزة الله ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنی عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها؛ لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ لم يقل: فعليكم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] أي: فإذا عرفتم عزته (وهو قهره وغلبته وقوته وامتناعه)، وعرفتم حكمته (وهو وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها)، أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزلللكم؛ لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة - وهو المصير على الذنب مع علمه - وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه؛ لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ لم يقل: فاعفوا عنهم أو: اتركوهم، ونحوها، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه فيدفع عنه العقوبة ويمده بالقوة فكذلك فاعفوا عنه إذا استحق العفو.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. أي: عزَّ وحكم فقطع يد السارق، وعزَّ وحكم فعاقب المعتدين شرعاً وقدرًا وجزاء.

ولما ذكر الله موارث الورثة وقدرها في سورة النساء قال: ﴿فَرِيشَةً مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١] فكونه عليمًا حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاحضعوا لما قاله وفصله وحكم به في توزيع الأموال على مستحقيها، الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وكل العباد إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهدكم لدخلها الجهل والهوى والغنى والظلم وعدم الحكمة، وصارت الموارث

فوضى وسبباً في إراقة الدماء، وحصل في ذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاهما هو وقسمها بأحكام قسمة وأوفقها للأحوال، وأقربها للنفع؛ ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو كافر؛ لأنه قادح في علم الله وفي حكمته؛ ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد؛ ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه، ويختتم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: تعبدوا لله بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مِّدْخَلًا يُرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة خُتِمت باسمين كريمين، فالأولى منها هذه، خُتِمتها بالعلم والحلم يقتضي علمه بنبأاتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة، ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم، فكانهم ما فعلوها.

وختَمَ الثانية بالعفو الغفور؛ فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلى مقام الفضل - وهو العفو وعدم معاقبة المسيء - وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا الله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين؛ لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختَمَ الآية الثالثة بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات، وتباين الحالات.

وختَمَ الآية الرابعة بالعلي الكبير؛ لأن علوه المطلق، وكبريائه، وعظمته، ومجده، تضمحل معها جميع المخلوقات، ويبطل معها كل ما عُبد من دونه، وبإثبات كمال علوه، وكبريائه، يتعين أنه هو الحق، وما سواه هو الباطل.

وختَمَ الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور، وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده؛

حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق بما أنزله من الماء النмир والخير الغزير.

وَحَتَمُ الآيَةِ السادسة بالغني الحميد بعدما ذَكَرْ مُلكه للسموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها لحاجة منه لها؛ فإنه الغني الغني المطلق، ولا ليتكَمَّلَ بها؛ فإنه الحميد الكامل؛ وليلد لهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، فبغناه تفضل عليهم، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه؛ لأنه الجميل الذي يفعل كل جميل، ويسدي إلى عباده كل جميل، يستوجب عليهم أن يعرفوه الحميد في أقداره، الحميد في شرعه، الحميد في جزائه، فله الحمد المطلق ذاتاً، وصفات، وأفعالاً.

وَحَتَمُ الآيَةِ السابعة بالرءوف الرحيم، أي: من رأفته، ورحمته تسخير المخلوقات لبني آدم، وحفظ السموات والأرض، وإبقاؤها وإمساكها لئلا تزول فتختل مصالحهم، ومن رحمته سخر لهم البحار؛ لتجري فيها الفلك في منافعهم، ومصلحتهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم، وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه، وذلك برحمة الله ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته، وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين؛ فإنه نجى الرسل وأتباعهم بكمال قوته، وعزته، ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته، ورحمته. ويكون ذكر الرحمة دالاً على عظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله فأغلقوها دونهم، بتمردهم على الله وكفرهم وشركهم، فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] ولم يقل: أنت الغفور الرحيم. لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أنه يذكر أسباب الرحمة، وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة، مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]. وقوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣] وذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وجد فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة؛ ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان، ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها كيفية الاستدلال بذلك.

القاعدة العشرون

القرآن كله محكم

باعتبار، وكله متشابه باعتبار،

وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث، فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه: ﴿أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]. ومعنى ذلك: أنه في غاية الإحكام، وقوة الاتساق، وأنه بالغ في الحكمة أقصى غاية، فأخباره كلها حق وصدق لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وهدى وبركة وصلاح، ونواهيها عن كل ما يعود على الإنسان بالشرور، والأضرار، والأخلاق الرذيلة، والأعمال السيئة، فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]. أي: متشابهًا في الحسن، والصدق، والهدى، والحق، ووروده المعاني النافعة

المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المصلحة للأحوال؛ فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن: ﴿مَنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُتُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ فهذا وصفه بأن بعضه هكذا، وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكماً، ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم، وزال الإشكال؛ ولهذا النوع أمثلة:

منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فإذا اشتبهت آيات على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جزافاً لغير سبب، كشفت هذا الاشتباه وجلته الآيات الأخر، الدالة على أن هدايته لها أسباب يفعلها العبد ويتصف بها، مثل قوله في سورة المائدة: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]. وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشيطان ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وإذا اشتبهت آيات على الجبري، الذي يرى أن العباد مجبورون على أفعالهم، بيئتها الآيات الأخر الكثيرة، الدالة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة. كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد، حسننها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، وظنوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم، ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان، والأعمال، والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء؛ ومن ذلك أعمال العباد، وأن العباد ما يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها،

والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافى، فالطاعات والمعاصي واقعة منهم، وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم، وخالق قدرتهم وإرادتهم، وما أجمل في بعض الآيات فسّره آيات آخر، وما لم يتضح في موضع اتضح في موضع آخر، وما كان معروفاً بين الناس، وورد فيه القرآن أمراً، أو نهياً؛ كالصلاة، والزكاة، والزنى، والظلم، ولم يفصله، فليس مجملاً؛ لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه، والله أعلم.

القاعدة الحادية والعشرون

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدة جليّة المقدار، عظيمة النفع؛ فإن الله أمر عباده بالمعروف (وهو: ما عُرف بحسنة شرعاً، وعقلاً، وعرفاً)، ونهاهم عن المنكر (وهو: ما ظهر قبحه شرعاً، وعقلاً، وعرفاً)، وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك، فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال، والأوقات، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة والأخلاق الكريمة من البر والإحسان والمروءة والشجاعة والفهم، والاعتبار بكل ما يعرض للإنسان ويقع له وعليه، فإنه أمر به في كل وقت، والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة.

وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك، والقتل بغير حق، والزنا، وشرب الخمر، ونحوها من كل ما هو ضد المعروف، ثبتت^(١) في كل زمان ومكان، لا تتغير،

(١) أي: أحكامه.

ولا يختلف حكمها، وما كان يختلف باختلاف الأمكنة، والأزمنة، والأحوال، هو المراد هنا؛ فإن الله تعالى يردهم فيه إلى العرف، والعادة، والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت؛ وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده شيئاً مخصوصاً من الإحسان والبر؛ ليعم كل ما تجدد من الأوصاف، والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر، فالواجب الذي أوجبه الله: هو النظر في الإحسان المعروف في وقتك، ومكانك، في حق والديك.

ومثل ذلك ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب، والجيران، والأصحاب، ونحوهم؛ فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً، ولا يكون معارضاً للمعروف من التشريع، وكذلك ضده من العقوق، والإساءة، ينظر فيه إلى العرف.

وكذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وفي سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فرد الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك، وحالك، ومركزك الاجتماعي وذلك يختلف اختلافاً عظيماً لا يمكن إحصاؤه عدداً، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات إحكام القرآن، وبراهين صدقه.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]. ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرَيْشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]. فقد أباح لعباده الأكل، والشرب، واللباس، ولم يعين شيئاً من الطعام، والشراب، واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة، فتعلق بها الإباحة حيث كانت، لا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن أو غير موجود.

وكذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ومن المعلوم أن السلاح والقوة التي كانت موجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة التي وجدت بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل مستطاع من القوة في كل وقت بحسبه وبما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] لم يعين لنا نوعاً من التجارة، ولا جنساً، ولم يحدد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضا في البيع والتجارة، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما تجري فيه تجارة ما لم ينه عنه الشارع أو لا يحصل، وأن كل ما حصل به الرضا من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضا من قول أو فعل انعقدت به المعاوضات، والتبرعات والمعاملات. وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير.

القاعدة الثانية والعشرون في مقاصد ما يضرب القرآن من الأمثال

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع؛ فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه، فمن أنواع تعليمه العالي ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة؛ كالتوحيد، وحال الموحّد، والشرك، وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القارئ كأنه يشاهد معانيها رأي عين.

وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم؛ فقد مثل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأرض، والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب؛ كعمل الغيث والمطر في الأرض، فمنها أرض طيبة تقبل الماء، وتنبت الكلاً والعشب الكثير، كمثل القلوب الفاهمة، التي تفهم عن الله ورسوله وحيه، وكلامه، وتعقله، وتعمل به علماً، وتعليمًا، بحسب حالها، كالأرض بحسب حالها. ومنها

أرض تمسك الماء ولا تنبت الكلاً، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه، فيشربون، ويسقون مواشيهم وأراضيهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة، وتلقيه إلى الأمة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذي بغذائه ما عند الأولين. ومنها أرض لا تمسك ماء، ولا تنبت كلاً، كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي، لا علمًا، ولا حفظًا، ولا عملًا.

ومناسبة الأرض للقلوب كما ترى في غاية الظهور. وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك؛ لأن الغيث فيه حياة الأرض، والعباد، وأرزاقهم الحسية. والوحي فيه حياة القلوب، والأرواح، ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثل الله كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي أكلها دائم كل حين بإذن ربها، لأن شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها، لأنها غرس معرفة، وتصديق وتفكر وتدبر لآيات الله وتؤتي أكلها تقوى، وإيمانًا، وإرادة لموجبها، وهو منافعها كل وقت، من النيات الطيبة، والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة، والهدي المستقيم، دائمة في نفع صاحبها، وانتفاع الناس به، وهي صاعدة إلى السماء؛ لإخلاص صاحبها، وعلمه، ويقينه.

ومثل الله الشرك والمشرک الذي اتخذ مع الله إلهًا يتعزز به، ويزعم أنه سينال منه النفع، ودفع الضرر، بأن اتخذه هذا في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت، وأوهاها، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا إلى ضعفها!! كذلك المشرک ما ازداد باتخاذه وليًا ونصيرًا من دون الله إلا ضعفًا؛ لأن قلبه انقطع عن الله، ومن انقطع قلبه عن الله حله الضعف من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وهنًا إلى وهنه؛ فإنه اتكل عليه، وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه، وانقطع أمله!!

وأما المؤمن فإنه قوي بالله بقوة إيمانه، وتوحيده، تعلق بالله وحده لأنه يوقن أن الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر، وهو المتصرف في أحواله كلها، فهو العبد الذي استقام على صراط مستقيم، في أقواله، وأفعاله، منطلق الإرادة، تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم

بوجه من الوجوه؛ بخلاف المشرك؛ فإنه كالعبد الأبكم، الذي هو كَلٌّ وعالة على مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير؛ لأن قلبه متقيد للمخلوقين، مُسْتَرْقٌّ لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به، ومثل المشرك أيضًا كالذي خرَّ من السماء فَتَخَطَّفَتْهُ الطيور، ومزَّقته كل ممزَّق.

ومثل في سورة الحج لآلهة المشركين وأوليائهم هؤلاء الذين زعموا أنهم ينفعون فيدعونهم؛ بأنهم كالذباب بل أضعف من الذباب، إذ لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات - وهو الذباب - لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم؟ فكيف بفرد من مئات الألوف منهم؟ وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئًا لم يقدروا على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك غرور؟ وهو مع هذا الغرور، وهذا الوهن والضعف مقسم القلب بين عدة آلهة، كالعبد بين الشركاء المتشاكسين، لا يتمكن من إرضاء أحدهم دون الآخر، فهو معهم في شرٍّ دائم، وشقاء متراكم، فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعدما أضاع دينه. وأما الموحد فإنه خالص لربه، لا يعبد إلا خالقه وبارئه، ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه، فقد اطمأن قلبه واستراح ضميره، وعلم أنه الحق، وأن عاقبته أحمد العواقب، ومآله الخير، والفلاح، والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها في الدنيا والآخرة.

ومثل الله الأعمال بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له، الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع وأعلاها، تتنابه الرياح النافعة، وقد ضحا وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرة فإنها كافية له، كالطلل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضي وأزكاها، فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار، وطيب الظلال، ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغد متواصل، وهو آمن من انقطاعه وتلفه، ولثقتة ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره ومعبوده له، فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين، الحي القيوم الذي لا تأخذه

سنة ولا نوم، فأما الآخر الذي قد ركن إلى غير بارئه وفاطره فاعتمد على الميت الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ووثق به وفوض إليه حراسته وكلاءته في ماله وولده، فإله يغضب عليه أشد الغضب، ويبعث على بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة، فلا تغني عنه آياته وأولياؤه من شيء، فيقلب كفيه حسرة وندامة وقد كبر سنه، ونالت منه الشيخوخة والهزم وضعف عن العمل، وعنده أسرة ضعاف لا مساعدة منهم ولا غناء فيهم، وكان قد اغتبط به حيث كان مادة حياته وحياة أسرته، فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل بما يبطله من الشرك والنفاق، والمعاصي المحرقة، فإيا ويله بعدما كان بستانه زاكياً زاهياً أصبح تالفاً على عروشه خاوياً، قد أيس من عوده، وبقي بحسرتة مع أسرته!! فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها، فقد ذكر الله عاقبة من ثبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وعاقبة من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها عدة قوى تطيبها وتجعلها نافعة مثمرة؛ منها: طيب الأرض وقوة ما فيها من مواد الإخصاب، ومنها: يقظة صاحبها وعلمه بفنون استثمار أرضه وبستانه، ومنها: المياه، فكذلك الأعمال، يمدّها طيب عنصر القلب، وتخليته من المواد المفسدة، وتحليته بكثرة تفكره في آيات الله الكونية في الأنفس والآفاق، وتدبره لآيات الوحي المنزل لحياة القلوب الطيبة، وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل؛ من الاجتهاد، والإخلاص، والمتابعة، فأثمر عمله كل زوج بهيج.

وقد مثل الله عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، فيأتيه وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، فيجده سراّباً!! ومثله بالرماد الذي أحرق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية، وهذا مناسب لحال الكافر، وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة، وعمله بمنزلة الرماد والسراب الذي لا حقيقة له، وهو كان يعتقد نفعاً له، فإذا وصله ولم يجده شيئاً تقطعت نفسه حسرات، ووجد الله عنده فوقاه حسابه.

كما مثل نفقات المخلصين بذلك البستان الزكي الزاهي، ومثل نفقات المرائين بحجر أملس عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صليداً لا شيء عليه؛ لأن قلب المرائي لا إيمان فيه، ولا تصديق، ولا إخلاص، بل هو قاسٍ كالحجر، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وحب للسمعة، لم تؤثر في قلبه حياة، ولا زكاة، كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئاً.

وهذه الأمثال إذا طبقت على ممثلاتها وضحت، وبيّنتها، وبيّنت مراتبها من الخير، والشر، والكمال، والنقصان.

ومثل الله حال المنافقين بحال من هو في ظلمة فاستوقد ناراً من غيره، ثم لما أضاءت ما حوله وتبين له الطريق، ذهب نورهم، وانطفأ ضوءهم، فبقوا في ظلمة عظيمة أعظم من الظلمة التي كانوا عليها أولاً!! وهكذا المنافق، استنار بنور الإيمان، فلما تبين له الهدى غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة، أبقى على دين الآباء والشيوخ أم يخرج عنه إلى دين الهدى والحق؛ كما يقتضيه من الطاعات والأعمال، فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلى ظلمات: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] فذهب عنه نور هو أحوج ما يكون إليه، وبقي في ظلمة متحيراً، فهم لا يرجعون؛ لأن سنة الله في عباده أن من بان له الهدى، واتضح له الحق، ثم رجع عنه أنه لا يوفقه بعد ذلك للهداية؛ لأنه رأى الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه، وهذا المثل ينطبق على المنافقين، الذين تبصّروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة، فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني هو قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعْدٌ وَرَقٌّ يَّجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي إِذَا نَهُم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] ينطبق على حال ثانية للمنافقين، الضالين، المتحيرين، الذين يسمعون القرآن فلم يعرفوا المراد منه، لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعاً لرؤسائهم وساداتهم.

ومثل الله الحياة الدنيا، وزهرتها، والاغترار بها، بحالة زهرة الربيع، تعجب الناظرين،

وتغر الجاهلين، ويظنون بقاءها، ولا يؤملون زوالها، فَلَهَوُا بها عما خُلِقُوا له، فأصبحت عنهم زائلة، وأضحوا النعيمها مفارقين في أسرع وقت، كهذا الربيع، إذا أصبح بعد الاخضرار هشيماً، وبعد الحياة ييساً رميمًا، وهذا الوصف قد شاهدته الخلق، واعترف به البر والفاجر، ولكن سكرة الشهوات، وضعف داعي الإيمان اقتضى إثارة العاجل على الآجل.

القاعدة الثالثة والعشرون إرشادات القرآن على نوعين

أحدهما: أن يرشد أمرًا، ونهيًا، وخبرًا، إلى أمر معروف شرعًا، أو معروف عرفًا كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، ويعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر:

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية داخله فيها.

وأما النوع الثاني - وهو المقصود هنا - : فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكير في خلق السماوات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها، وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] ونبه العقول على التفكير فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها؛ وذلك أننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها، وأوصافها، وانتظامها، ولأي شيء خُلقت؟ ولأي فائدة أُبقيت؟ وماذا فيها من الآيات؟ وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا التفكير فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة، والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد، والجنة والنار، وعلى صدق رسله، وحقيّة ما جاءوا به من عنده. وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به، وكل عالم ومحقق قد ذكر منه ما وصل إليه علمه وما بلغه تفكيره وفهمه؛ فإن الله أخبر أن الآيات إنما يتنفع بها أولو الألباب، وكل واد يسيل بهدي القرآن بحسبه. وهذا أجلّ العلمين، وأعلاهما، وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها؛ لنستخرج منها المنافع المتنوعة، فإن الله سخرها لنا، وجعلها طوع علومنا وأعمالنا، وسلّطنا على استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فذلّل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة لنحرثها، ونزرعها، ونغرسها، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة، فجميع فنون الصناعات على كثرتها، وتنوعها، وتفوقها - لا سيما في هذه الأوقات - كل ذلك داخل في تسخيرها لنا.

وقد عرفت الحاجة، بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع منها، وترقية الصنائع إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها أمور فيها فوائد عظيمة للخلق، وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم به الأمور المطلوبة فهو مطلوب^(١).

وهذا يدل على أن تعلّم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعاً، كما هي مطلوبة لازمة عقلاً، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن؛ فإن الله نبّه العباد على أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض، فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق وهي لا تعرف إلا بالبحث والتنقيب،

(١) هكذا في الأصل. وقد جرى عليه تعديل - بغير خط المؤلف - وبه يستقيم المعنى، ونص العبارة بعد التعديل المشار إليه: «أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب».

والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها، وهذا من آيات القرآن، وهو أكبر دليل على سعة علم الله، وحكمته، ورحمته بعباده؛ بأن أباح لهم جميع النعم، ويسر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتاً بعد وقت، وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكر به العباد في كل زمان ومكان، وأنه هداية لجميع المصالح.

القاعدة الرابعة والعشرون القرآن يرشد إلى التوسط والاعتدال، ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد في كل الأمور

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان، والناهية عن ضدهما كثيرة، والعدل في كل الأمور لزوم الحد فيها، وألا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصر ويدع بعض الحق؛ ففي عبادة الله: أمر بالعدل وهو التمسك بما عليه النبي ﷺ، ونهى عن مجاوزة ذلك وتعدي الحدود، وذم المقصرين في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر الله بها: ما جمعت الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول. فإذا خلت من الأمرين، أو أحدهما، فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم: أمر بالاعتدال، وهو: الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة على محبة الخلق، وتوقيرهم، واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها. ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم، وأن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويُجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك، كما نهى عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم، أو عدم اتباعهم، وذم الغالين فيهم - كالنصارى ونحوهم

في عيسى كما ذم الجافين لهم - كاليهود حيث قالوا في عيسى ما قالوا - وذم من فرق بينهم فأمن ببعض دون بعض، وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك الأمر في حق العلماء، والأولياء، يجب محبتهم، ومعرفة أقدارهم، ولا يحل الغلو فيهم وإعطاؤهم شيئاً من حق رسوله الخاص، ولا يحل مجافاتهم ولا عداوتهم، فمن عادى لله ولياً فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات، والصدقات، ونهى عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهى عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال، والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأنفسهم وأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحث على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع، والهلع، والتسخط.

كما نهى عن التجبر، والقسوة، وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك، من الوالدين، وذوي القربى والجار والإخوان والولاة والحكام، والأجراء والطلبة، وغيرهم من كل ذي حق هو فرع حق الله سبحانه وتعالى تفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والإحسان إليهم قولاً وفعلاً، وذم من قصر في حقهم، أو أساء إليهم قولاً وفعلاً، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله، وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاعتصام بالأكل، والشرب، واللباس والحركة والمشي والصوت، ونهى عن التجاوز والإسراف، في كل ذلك كما حذر أشد التحذير من الترف ونهى عن التقصير الضار بالروح والجسم.

وبالجملة فإن الله العليم الحكيم أمر بالتوسط في كل شيء بين تفريط أو إفراط. وقال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

القاعدة الخامسة والعشرون

حدود الله قد أمر بحفظها، ونهى عن تعديها وقربانها

قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] و﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة التي أمرهم بفعلها، ومن المحرمات التي أمرهم بتركها؛ فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة. ويتوقف هذا على معرفة الحدود على وجهها؛ ليعرف ما يدخل في الواجبات والحقوق فيؤديها على ذلك الوجه كاملة غير ناقصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها؛ ولئلا يلبس الشيطان عليهم بعضاً منها، ولهذا ذم الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله، وأثنى أطيب الثناء على من عرف ذلك.

وحيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ كان المراد بها ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع؛ فإنه نهى عن مجاوزتها، وأمر بملازمتها، كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام، والشراب، واللباس، والنكاح، ونهى عن تعدي ذلك إلى ما حرم من الخبائث، وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح، والطلاق، والعدة وتوابع ذلك، ونهى عن تعدي ذلك إلى فعل ما لا يجوز شرعاً، وكما أمر بالمحافظة على ما فصله من أحكام الموارث، ولزوم حده، ونهى عن تعدي ذلك وتوريث من لا يرث، وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ كان المراد بذلك المحرمات؛ فإن قوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى عن الدنو والقرب منها من أي ناحية من نواحيها فهو نهى عن

مقدماتها ونهي عن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها، ونهي عن فعلها من باب أولى، كما نهاهم عن المحرمات على الصائم، وبين لهم وقت الصيام، فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ وكما حرّم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئاً إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، وكما بين المحرمات في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وفي الخمر والميسر أنهما ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود الله والوقوف عندها والمحافظة عليها، كما أن أصل كل الشر وأسباب كل العقوبات الجهل بحدود الله، أو ترك المحافظة عليها، والله أعلم.

القاعدة السادسة والعشرون

الأصل أن الآيات التي فيها قيود

لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود إلا في آيات يسيرة

وهذه قاعدة لطيفة؛ فإن الله متى رتب في كتابه حكماً على شيء، وقيد به بقيد، أو شرطاً لذلك شرطاً، تعلق الحكم به على ذلك الوصف الذي وصفه الله تعالى. وهذا في القرآن لا حصر له، وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين إذا تكلموا عليها: «هذا قيد غير مراد» ففي هذه العبارة نظر؛ فإن كل لفظة في كتاب الله فإن الله أرادها لما فيها من فائدة قد تظهر للمتكلم^(١)، وقد تخفى.

وإنما مرادهم بقولهم: «غير مراد»: ثبوت الحكم بها. فاعلم أن الله تعالى يذكر الأحكام

(١) لعله سبق قلم، والمراد: «السامع». ويمكن تصحيح عبارة المؤلف - رحمه الله - إذا حملنا قوله: «للمتكلم» على قائل العبارة المشار إليها.

الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة لها ليرزها لعباده؛ ليظهر لهم حسناتها إن كانت مأمورًا بها، أو قبحها إن كانت منهيًا عنها، وعند تأمل هذه الآيات - التي بهذا الصدد - يظهر لك هذا منها عيانًا.

فمنها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُمْ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ومن المعلوم أن من دعا مع الله إلها آخر فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقًا، وإنما قيدها الله بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرک، وأن الشرك قطعًا ليس له دليل شرعي ولا عقلي، والمشرک ليس بيده ما يسوغ له شيئًا من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشرکين بما تملكهم لغبائهم وبلاذتهم التقليدية من المعاندة، ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض بهيمية، ومقاصد سيئة، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستسيغه من له أدنى فهم وعقل.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَرَبِّبُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] مع أن كونها في حجره أو غير حجره ليس شرطًا لتحريمها؛ فإنها تحرم مطلقًا، ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعًا لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح تزوج الربية التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته، فذكر الله المسألة متجلية بثياب قبحها؛ لينفر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يعلّق بمثل هذه الحالة، فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقًا، أو محرمة مطلقًا، سواء كانت عند الإنسان أم لا، كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] و﴿مَنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] مع أنه من المعلوم النهي عن قتل الأولاد على أي حال، فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشر كله؛ كونه قتلاً بغير حق، وقتل من جبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها، وكون ذلك صادرًا عن التسخط لقدر الله، وإساءة الظن بالله؛

فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق، إنما يقتلونهم تبرماً وتسخطاً بقدر الله، فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم؛ حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم، فصار الأمر بالعكس.

وأيضاً فإنه إذا كان منهياً عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الافتقار، أو حدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى، وأيضاً ففي هذا بيان للحالة الموجودة غالباً عندهم، فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة: ﴿وَعَوْلَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فمن العلماء من قال: إنه من هذا النوع، وإنه يستحق ردها، سواء أراد المراجع الإصلاح أو لم يرد؛ فيكون ذكر هذا القيد حثاً على لزوم ما أمر الله به من قصد الإصلاح، وتحريم إمساكها وردها إلى زوجيته على وجه المضارة، وإن كان يملك ردها؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ [البقرة: ٢٣١].

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام، وأن الزوج لا يملك رجعة زوجته في عدتها، إلا إذا قصد الإصلاح، فأما إذا قصد ضد ذلك، فلا حق له في رجعتها، وهذا هو الصواب.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضراً وسفراً، ففائدة هذا القيد أن الله ذكر أعلى الحالات، وأشد الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت معها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض.

وكما قاله الناس في قيد السفر، فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض، وأن قبضه ليس شرطاً لصحته، وإنما ذلك للاحتياط، وزيادة الاستيثاق، وكذلك فقد الكاتب.

ومنها: قوله: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] مع أن الحق يثبت بالرجل فقط والمرأتين فقط، مع وجود الرجلين، لكن ذكر الله أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق، بدليل أن النبي ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة، وهو أن الآية أرشد الله فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم لتمام راحتهم، وحسم اختلافهم ونزاعهم.

وأما قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] فإنها من أصل القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع، وأنه يجب التذكير نفعت الذكرى أو لم تنفع، لكن قصر الآية على هذا غلط، فإن الآية تعطي أيضاً لمن تدبر أن الذكرى: إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه، أو يزول بها الشر كله أو بعضه، وجب توجيهها، فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه، فإنه منهي عنه في هذه الحال، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين، إذا كان وسيلة لسب الله، وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر، أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به.

وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه شراً، فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به، بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فعلم أن هذا قيد مُراد يرتبط بالحكم به ثبوتاً وانتفاءً، والله أعلم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق، فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة فيها لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرماً، وأشدّهم إساءة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] فليست من هذا النوع، وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، والحق الذي قيدها الله به جاء مفسراً في قوله ﷺ: «النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق

للجماعة»^(١).

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [المائدة: ٦] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر؛ فإنه إذا فقد جاز التيمم حضراً وسفراً، لكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء، أما الحضر فإنه يندر فيه عدم الماء جدّاً، ومن هذا السبب ظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم، وإن كان الماء موجوداً!! وهو في غاية الضعف، وما ثبت من هدي الرسول ﷺ وأصحابه والأئمة مخالف لهذا القول.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

مع أن الخوف ليس شرطاً لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق، ولما سئل النبي ﷺ عن هذا أجاب: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»^(٢)، ويعني بصدقة الله: إحسانه في كل زمان ومكان، لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول، وأن القصر التام - وهو قصر العدد، وقصر الأركان والهيئات - شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وُجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة، وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها، وإن وُجد السفر وحده لم تقصر هيئاتها وشروطها، وإنما يقصر عددها، ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ؛ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط، فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية، غير مخالف لحديث الرسول ﷺ، فيتعين الأخذ

به.

(١) البخاري (٦٨٧٨)، مسلم (١٦٧٦).

(٢) مسلم (٦٨٦).

القاعدة السابعة والعشرون المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع عند الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع، عظيمة الوقع؛ وذلك أنه ما من موضع يسوق الله فيه حكماً من الأحكام، أو خبراً من الأخبار، فيتشوّف الذهن فيه إلى شيء آخر إلا وجدت الله قد قرن به ذلك الأمر الذي تشوفت إليه الأذهان، فيبيّنه أحسن بيان، وهذا أعلى أنواع التعليم فإنه لا يُبقي إشكالاً إلا أزاله، ولا احتمالاً إلا أوضحه، وهذا يدل على عظيم فضل الله وبالعظيم حكيمته، وهو في القرآن كثير جداً، ولنذكر بعض أمثلة توضح هذه القاعدة:

فمن ذلك: قوله تعالى في سورة النمل: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ لما كان تخصيص مكة بالذكر، ربما يوقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

ومنها: قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ لما كان قد يقع في الذهن أنهم على بعض حجة وبرهان في شركهم، أبان بقوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أن ضلالهم إنما هو تقليد أعمى لأبائهم وجهل مطلق، ثم لما كان قد يتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلى بعض يقين من شركهم وكفرهم بدد ذلك بقوله: ﴿وَأَنَا لَمُوفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَةٌ﴾ [هود: ١٠٩، ١١٠].

فبين بهذا أنهم ليسوا على شيء من اليقين في دينهم، والاطمئنان إلى جزائهم في الآخرة بما يحبون، فإن من المحال أن يؤتي العزيز الحكيم الجزاء في الآخرة بما يهوى الضالون.

ولما قال تعالى في سورة النساء: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع القاعدين، ولو كان القاعدون معذورين، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

وكذلك لما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَدْ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَا﴾ ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة على أي حال، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يُستحق بظاهر هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

ومنها: قوله في سورة النمل: ﴿وَكَاثَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ربما وقع في الذهن أنهم قد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] أي: لا خير فيهم أصلاً، مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْأَدْعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠] و[الروم: ٥٢] فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فلعلهم يفهمون الإشارة، فأزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِذَا وَلَوْ أُمَّدَّيْنِ﴾ فهذه الحالة لا تقبل سماعاً ولا رؤية لتحصل الإشارة، وهذا نهاية الإعراض.

ومنها: قوله: ﴿وَلَا يَكُنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافاً من غير سبب، فأزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] أي: بمن يصلح للهداية لذكائه وخيره، وإقباله على الهداية وطلبها بالتفكر في آيات الله والشوق إلى فهم ما يوحى به إلى رسله، فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها، ومن كان فقيهاً غير مقلد رأى من هذا شيئاً كثيراً.

القاعدة الثامنة والعشرون في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف الله بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، وبفقدته يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر الله من ذكره في القرآن جدًا: أمرًا به، ونهيًا عن ضده، وترغيبًا فيه، وبيانًا لأوصاف أهله، وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي؛ فإذا كان المقام مقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي، أو مقام إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متممًا لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصًا شيئًا منها، وأما إن كان المقام مقام مدح وثناء، وبيان الجزاء الكامل للمؤمن، فإن المراد بذلك المؤمن حقًا، الجامع لكل معاني الإيمان، وهذا هو المراد بيانه هنا، فنقول: وصف الله المؤمن في كتابه بتصديقه وإذعانه بجميع عقائد الدين، وبحب ما يحبه الله ويرضاه، وبالعامل به وبالتباعد والحذر من كل ما يبغضه الله وبإدامة الإنابة والرجوع إلى الله في كل حال وكان لإيمانه أطيب الثمرات في الأعمال والأخلاق، فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره، وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما جاء به الرسل كلهم، ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، ووصفهم بأنهم ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ [٣] أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [٤ - ٢].

ووعدهم بأنعم وأطيب البشري ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [٣٤] الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ [الحج: ٣٤، ٣٥].

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر، وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن

لآيات الله وذكره، وبأنهم يخشون ربهم في الغيب والشهادة، وأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَاءًا تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا، وفي
الصلاة خصوصًا، وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، وللفروجهم حافظون، إلا على
أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، وأنهم بشهاداتهم قائمون، ولأماناتهم وعهدهم راعون.

ووصفهم بأنهم يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، وأنهم
يبیتون لربهم سجدًا وقيامًا، وأنهم يقولون بدعائهم وأعمالهم وأخلاقهم: ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ
عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥]، وأنهم مقتصدون وسط في كل شئوئهم، وإذا أنفقوا لم
يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا، وأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس
التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون، وأنهم لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كرامًا،
وأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا، بل خروا سجدًا وبكياً ويخرون
للأذقان يبيكون، وتزيدهم رؤية آيات الله وسماعها خشوعًا وإخبارًا وأنهم يطلبون السمو
والعلو دائمًا فلا يرضون إلا أن يكونوا أئمة في الهدى والإيمان والتقوى ومكارم الأخلاق،
وأنهم يقدرון الواجب عليهم ومسئوليتهم أمام الله عما استرعاهم من الأولاد والزوجات
وغيرهم، فيحسنون القيام عليهم في تأديبهم وتربيتهم؛ ليكونوا قرة عين لهم.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله،
ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون، ووصفهم بمحبة المؤمنين، والدعاء
للسابقين واللاحقين منهم، وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين، وبأنهم
يتولون الله ورسوله وعباده المؤمنين، ويتبرءون من موالاة جميع أعداء الدين، وبأنهم يأمرون
بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويطيعون الله ورسوله في كل أحوالهم، فجمع الله لهم بين
العقائد الحقّة، واليقين الكامل، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات، وترك
المنهيات، والوقوف على الحدود الشرعية.

فهذه الأوصاف الجليلة وهي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من أسباب العقاب،

واستحق جميل الثواب، ونال كل خير رُتّب على الإيمان، فإن الله رتّب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها، رتب على الإيمان نيل رضاه، الذي هو أكبر من كل شيء، ورتب عليه دخول الجنة، والنجاة من النار، والسلامة من عذاب القبر، ومن أهوال القيامة، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، والثبات في الدنيا على الإيمان، والطاعات، وعند الموت وفي القبر على الإيمان، والتوحيد، والجواب النافع السديد، ورتّب عليه الحياة الطيبة والحسنة في الدنيا، والرزق الكريم، وتيسيره ليسرى، وتجنّيه للعسرى، وطمأنينة القلوب، وراحة النفوس، والقناعة التامة، وصلاح الأحوال، وصلاح الذرية، والصبر عند المحن والمصائب، وحمل الله عنهم الأثقال، ومداغة الله عنهم جميع الشرور، والنصر على الأعداء، ورفع المؤاخذة عند النسيان والخطأ، وأن الله قد وضع عنهم الآصار والأغلال التي تكبل بها المقيدون الغافلون الأشقياء المعذبون في الدنيا والآخرة بكفرهم وشركهم، فالإيمان أكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد وتخفيفها، وثمرات الإيمان على وجه التفصيل كثيرة، وبالجملّة خيرات الدنيا والآخرة مرتبة على الإيمان، كما أن الشرور مرتبة على فقدّه، والله أعلم.

القاعدة التاسعة والعشرون في الفوائد التي يجتنيها العبد في معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد أن تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير؛ وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جليّة من العلوم، فعلى العاقل الناصح لنفسه أن يتدبر القرآن ويعرف كل نوع منها، ويعمل على هذا، ويتتبع الآيات الواردة فيه، فيحصل المراد منها علمًا، وتصديقًا، وحالًا، وعملاً.

فأجل علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما لله من صفات الكمال، فإذا مرّت عليه الآيات في توحيد الله وأسمائه وصفاته أقبل عليها، فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها لله على وجه لا يماثله فيه أحد، وعرف أنه ليس له مثل في ذاته ولا في صفاته، وامتلاً قلبه من معرفة ربه وحبّه بحسب العلم بكمال الله وعظمته.

فإن القلوب مجبولة على محبة الكمال، فكيف بمن له الكمال المطلق، ومنه جميع النعم الجزيلة، ويعرف أن أصل الأصول هو الإيمان بالله، وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد بربه، وفهمه لمعاني صفاته ونعوته، بما يشهد من آثارها عليه وعلى الناس فيقدر الله حق قدره ويشكره أعظم الشكر، وأيضاً يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله؛ فإن هذا هو أصل العلم، وأصل التعبد.

ومن علوم القرآن: صفات الرسل، وأحوالهم، وما جرى لهم وعليهم مع من وافقهم ومن خالفهم، وما كانوا عليه من الأوصاف الراقية والأخلاق الكريمة، فإذا مرّت عليه هذه الآيات عرف بها أوصافهم، وازدادت معرفته بهم ومحبتهم لهم، وعرف ما هم عليه من الأخلاق والأعمال، خصوصاً إمامهم وسيدهم محمداً ﷺ، فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم جهد طاقته، ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله بمعرفته التامة بأحوالهم، ومحبتهم، واتباعهم، وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الهدى، ويستفيد أيضاً الاقتداء بشرائعهم الحكيمة، وإرشاداتهم للخلق، وحسن خطابهم، ولطف جوابهم، وتمام صبرهم، فليس القصد من قصصهم أن تكون سَمَرًا، وإنما القصد أن تكون عِبْرًا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير، وأهل الشقاوة والشر، والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء، وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلى دار النعيم، ووصل بها أولئك إلى دار الجحيم، وفي معرفته لذلك فوائد الترغيب في الاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار، فأحب الأخيار ووالاهم وأبغض الفجار وعاداهم فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان،

وكَلِّمَا كَانَ الْعَبْدُ أَعْرَفَ لَأَحْوَالِهِمْ تَمَكَّنَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ.

وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ عِلْمُ الْجِزَاءِ فِي الدُّنْيَا، وَالْبَرْزَخِ، وَالْآخِرَةِ، عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَأَعْمَالِ الشَّرِّ، وَفِي ذَلِكَ مَقَاصِدٌ جَلِيلَةٌ: الْإِيمَانُ بِكَمَالِ عَدْلِ اللَّهِ، وَسَعَةِ فَضْلِهِ، وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنْ تَمَامَ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَعْرِفَةٍ مَا يَكُونُ فِيهِ، وَالرَّغْبَةُ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي رَتَّبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْجِزَاءَ الْجَزِيلَ، وَالرَّهْبَةُ مِنْ ضِدِّهَا.

وَمِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَفِي ذَلِكَ مَقَاصِدٌ جَلِيلَةٌ: مَعْرِفَةُ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، فَإِنَّ الْعِبَادَ مُحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَةٍ مَا أَمُرُوا بِهِ، وَمَا نُهِوا عَنْهُ، وَالْعَمَلُ بِذَلِكَ، وَالْعِلْمُ سَابِقٌ لِلْعَمَلِ، وَطَرِيقُ ذَلِكَ: إِذَا مَرَّ عَلَى الْقَارِئِ نَصٌّ فِيهِ أَمْرٌ بِشَيْءٍ عَرَفَهُ، وَفَهُمَ مَا يَدْخُلُ فِيهِ، وَمَا لَا يَدْخُلُ فِيهِ، وَحَاسِبُ نَفْسِهِ: هَلْ هُوَ قَائِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ، أَوْ بَعْضُهُ، أَوْ تَارِكُهُ؟ فَإِنْ كَانَ قَائِمًا بِهِ فَلِيَحْمَدِ اللَّهَ، وَيَسْأَلَهُ الثَّبَاتَ وَالزِّيَادَةَ مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِيهِ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُطَالِبٌ بِهِ وَمُلْزَمٌ بِهِ فَلْيَسْتَعِنَ اللَّهَ عَلَى فَعْلِهِ، وَلْيَجَاهِدْ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وكَذَلِكَ فِي النَّهْيِ؛ لِيَعْرِفَ مَا يُرَادُ مِنْهُ، وَمَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ لِيَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ؛ فَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ ذَلِكَ، فَلِيَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى تَوْفِيقِهِ، وَيَسْأَلَهُ أَنْ يَثْبِتَهُ عَلَى تَرْكِ الْمُنَاهِي، كَمَا يَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَلِيَجْعَلَ الدَّاعِيَ لَهُ عَلَى التَّرْكِ امْتِثَالَ طَاعَةِ اللَّهِ؛ لِيَكُونَ تَرْكُهُ عِبَادَةً، كَمَا كَانَ فَعْلُهُ لِلطَّاعَةِ عِبَادَةً، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ تَارِكٍ لَهُ، فَلْيَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا جَازِمَةً، وَلَا تَمْنَعِهِ الشَّهَوَاتُ الدُّنْيَا الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهَا النَّفْسُ الْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ.

فَمَنْ كَانَ عِنْدَ هَذِهِ الْمَطَالِبِ وَغَيْرِهَا عَامِلًا عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَإِنَّهُ ثَابِتٌ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالطَّرِيقَةِ الْمَثَلَى فِيمَا عَلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِرْشَادِ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَحَصَلَ لَهُ بِذَلِكَ عِلْمٌ غَزِيرٌ، وَخَيْرٌ كَثِيرٌ.

القاعدة الثلاثون

أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة:

إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار

وهذه القاعدة العظيمة خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالى، وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيف عن ثمانين اسمًا كُرِّرت في آيات متعددة بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب؛ فعليك أن تؤمن بأنه عليم وذو علم عظيم، محيط بكل شيء، قدير وذو قدرة وقوة عظيمة، ويقدر على كل شيء، ورحيم وذو رحمة عظيمة، ورحمته وسعت كل شيء، والثلاثة متلازمة، فالاسم دل على الوصف، وذلك دل على المُتعلِّق، فمن نفى واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لن تتم معرفته بالله، ولن يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته الذي هو أصل التوحيد، ولنكتف بهذا النموذج ليعرف أن الأسماء كلها على هذا النمط.

القاعدة الحادية والثلاثون

ربوبية الله في القرآن على نوعين عامة وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده، ومتعلقاتها، ولوازمها، وهي على نوعين: ربوبية عامة يدخل فيها جميع المخلوقات، برها وفاجرها، بل مكلفوها وغير المكلفين،

حتى الجمادات، وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها، ورزقها، وتديرها، وإعطائها ما تحتاجه، أو تضطر إليه في بقائها، وحصول منافعها، ومقاصدها، فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربهم بالوحي؛ ينزل لهم بغيث العلم، ويهديهم إلى الإيمان، ويوفقهم لتكميله، ويكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاق الرذيلة، ويسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى. وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة؛ فحيث أطلقت ربوبيته تعالى فإن المراد بها المعنى الأول، مثل قوله: ﴿رَبِّ أَلْعَلَّيْمِ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ونحو ذلك. وحيث قيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني، وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة؛ ولهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم في القرآن باسم الرب غالباً، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة؛ فملاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنى الجليل: أن الله أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده وعباده، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فكلهم ممالئكه، وليس لهم من الملك والأمر شيء لا في أنفسهم ولا في غيرهم. ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه، كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ثم ذكر صفاتهم الجليلة: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وفي قراءة: عباده، ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]. فالمراد بها بهذا النوع من قاموا بحقوق عبودية الله، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم، فالعبودية الأولى: يدخل فيها البر والفاجر، والعبودية الثانية: صفة الأبرار، ولكن الفرق بين الربوبية والعبودية: أن الربوبية وصف الرب وفعله، والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

القاعدة الثانية والثلاثون

إذا أمر الله بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمرًا بضده، وإذا أثنى على نفسه أو على أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص كان ذلك إثباتًا للكمال

وذلك لأنه لا يمكن امتثال الأمر على وجه الكمال إلا بترك ضده؛ فحيث أمر بالتوحيد، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل، والإحسان، كان نهيًا عن الشرك، وعن ترك الصلاة، وترك الزكاة، وترك الصوم، وترك الحج، وعن العقوق، والقطيعة.

وحيث نهى عن الشرك، وترك الصلاة، إلى آخر المذكورات، كان أمرًا بالتوحيد، وفعل الصلاة، إلى آخرها.

وحيث أمر بالصبر، والشكر، وإقبال القلب على الله: إنابة، ومحبة، وخوفًا، ورجاء، كان ناهيًا عن الجزع، والسخط، وكفران النعم وإعراض القلب عن الله وهلهه وجزعه وتعلقه بغير الله خوفًا ورجاء.

وحيث نهى عن الجزع، وكفران النعم، وغفلة القلب، كان أمرًا بالصبر، إلى آخر المذكورات. وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الأوامر والنواهي على هذا النمط.

وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات؛ فحيث أثنى على نفسه، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب، كالنوم، والسنة، واللغوب، والموت، وخفاء شيء في العالم من الأعيان، والصفات، والأعمال، وغيرها، والظلم، والعبث واللعب، وخلق شيء باطلاً، وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافًا بلا حكمة، فَلتضمن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال قيوميته، وقدرته،

وسعة علمه، وكمال عدله؛ لأن العدم المحض لا كمال فيه حتى يُنفى تكميلاً للكمال.

وكذلك إذا نفى الله عن كتابه الريب، والاختلاف، والشك، والإخبار بخلاف الواقع، كان ذلك لكمال دلالاته على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الحق في كل الأحكام، والصدق الخالص، وانتظامه لكل ما يهدي إلى الرشد وإلى الصراط المستقيم.

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب، والتقول على الله، واتباع الهوى، والغى، والضلال والجنون، والسحر، والشعر، والغلط، ونحوها، كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، ولكمال عقله، واستحالة كل ما يقدر في كمال نبوته ورسالته، فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها تنل خيراً كثيراً، والله أعلم.

القاعدة الثالثة والثلاثون المرض في القرآن

مرض القلوب نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات المحرمات^(١)، والطريق إلى تمييز هذا من هذا - مع كثرة ورودهما في القرآن - يُدرك من السياق، فإن كان السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين كان هذا مرض الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل إليها كان مرض الشهوات.

ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته؛ وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه، ومعرفة، و يقينه، وكمال إرادته ما يحبه الله ويرضاه، فالقلب الصحيح هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل وتركه، فإن كان علمه شكاً، وعنده

(١) أي: شهوات الأعمال المحرمات.

شبهات تُعارض ما أخبر الله به؛ من أصول الدين وفروعه كان علمه منحرفاً، وكان مرض قلبه قوة وضعفاً بحسب هذه الشكوك والشبهات، وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي الله كان ذلك انحرافاً في إرادته ومرضاً، وهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ فلا يغلب على العبد الشهوات إلا بفساد علمه بالله وعدله وقضائه وحكمته وشرعه وجزائه، ولا يغلب عليه الشهوات إلا بفساد نفسه وغلبة شهوات الدنيا ورياستها وحظوظها على ما عند الله والدار الآخرة، وإنما قد يكون أحدهما أبرز من الآخر.

فمن النوع الأول: قوله تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهي ^(١) التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

ونظير هذا قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وكذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣] فإن مريض القلب بالشكوك وضعف العلم، أقل شيء يريبه، ويؤثر فيه، ويفتن به.

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. أي: مرض شهوة وإرادة للفجور، فالمريض بذلك أقل شيء من أسباب الافتتان بوقعه في الفتنة طمعاً أو فعلاً، فكل من أراد شيئاً من معاصي الله فقلبه مريض مرض شهوة، ولو كان صحيحاً لاتصف بصفات الأذكاء، الأبرياء، الأتقياء، الموصوفين بقوله في سورة الحجرات: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ وَرَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّسِيدُونَ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره الله فليحمده على هذه النعمة التي لا يقاومها شيء من النعم، وليسأل الله الثبات على ذلك ويأخذ في أسباب الزيادة من فضل الله ورحمته.

(١) أي: الأمراض والأدواء التي في قلوبهم.

القاعدة الرابعة والثلاثون

دَلَّ القرآن في عدة آيات أن من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلي بالاشتغال بما يضره، وحُرم الأمر الأول

وذلك أنه ورد في عدة آيات أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسول بزعمهم أنهم بشر ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه ثم تركوه قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ولما بين لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختياراً ورضاً بطريق الغي على طريق الهدى عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم خاسرين في كل سعيهم، ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهيّن، ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة، ولما منعوا مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وأخربوها ما كان لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿[التوبة: ٧٥ - ٧٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، يخبر الله فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي، وأن يسلك الطريق المستقيمة، ثم إذا تركها بعد أن عرفها، وزهد فيها بعد أن سلكها، أنه يُعاقب، ويصير الاهتداء غير ممكن في حقه، جزاء على فعله، كقوله عن اليهود: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ﴿[البقرة: ١٠١، ١٠٢] فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزل من عنده لهداية العباد وإصلاح كل شئونهم وإسعادهم وهي خير ما يشتغل به العاقل الناصح

لنفسه وأنفعها وأصدقها، ابتلوا باتباع أذله وأخسئها وأضرها للعقول وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان!!

القاعدة الخامسة والثلاثون

في القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته

وهذه قاعدة جليلة نبه الله عليها في آيات كثيرة، فمن الأول: المفاضلة بين الأعمال، وتقديم الأعلى منها، كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ [الحديد: ١٠]. وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]. وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. بين تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين من قتال في الشهر الحرام أنه وإن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل الله، والكفر بالله، وبسبيل هداه، وبالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر عند الله وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبر من القتال في الشهر الحرام.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] فكف الله المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية، مع وجود المقتضى من الكفار،

اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك من إصابة المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذى أو القتل ما يكون سبباً في لحقوق المعرّة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب، من التزام تلك الشروط التي ظاهرها ضرر على المسلمين، ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم، والفتح المبين. ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلى المدينة؛ لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضرراً من الصبر والإخلاق إلى السكينة. ولعل من هذا مفهوم قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] يعني: فإن ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين. والآيات في هذا النوع كثيرة جداً.

ومن الثالث قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] هذا كالتعليل العام: أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه فإن الله من حكمته لا بد أن يمنع منه عباده ويحرمه عليهم، وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعاً فإنه هو المعقول بين الناس المفطورين على استحسانه والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية، والله أعلم.

القاعدة السادسة والثلاثون

طريقة القرآن إباحة الاقتصاص من المعتدي، ومقابلة عدوانه بمثله، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه والإحسان

وهذا في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى

اللَّهُ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿الشورى: ٤٠﴾. فذكر المراتب الثلاث، ولما كان القتال في المسجد الحرام محرماً قال تعالى: ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [إلى قوله] ^(١) ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ^(١١٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴿[البقرة: ١٩١ - ١٩٤] وهو كل ما حرّمه الله، وأمر باحترامه، فمن انتهكه فقد أباح الله الاقتصاص منه بقدر ما اعتدى به لا أكثر. وقوله بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنُوبٌ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. وقوله: ﴿وَكُنُوبًا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]. والآيات في هذا المعنى كثيرة، والله أعلم.

القاعدة السابعة والثلاثون

اعتبر الله القصد والإرادة في ترتب الأحكام على أعمال العباد

وهذا الأصل العظيم صرّح به النبي ﷺ في قوله: «إنما الأعمال بالنيات» ^(٢)، والمقصود هنا أنه وردت آيات كثيرة جداً في هذا الأصل.

فمنها: وهو أعظمها أنه رتب حصول الأجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] وقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ

(١) ما بين المعقوفين زيادة يقتضيها النص.

(٢) البخاري (١)، مسلم: (١٩٠٧).

﴿الله﴾ [البقرة: ٢٦٥] وفي مقابله قال: ﴿رَبَّاءَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨]. ووصف الله نبيه وخيار خلقه من الصحابة ومن تبعهم رضي الله عنهم بأنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى في الرجعة: ﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِن أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وقال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: ١٢] وقال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤] ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَخَاطَبُوهُمْ فَاخُونَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. وفي دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله: قد فعلت. وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وذكر الله قتل الخطأ، ورتب عليه الدية والكفارة، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. وقال في جزاء الصيد: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَّتَعِمَّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: ٩٥] وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن أعمال الأبدان، وأقوال اللسان، صحتها وفسادها، وترتب أجرها، أو وزرها، بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية.

القاعدة الثامنة والثلاثون

**قد دلت آيات كثيرة على جبر خاطر المنكسر قلبه
ومن تشوّفت نفسه لأمر من الأمور، إيجاباً أو استحباباً**

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري، وأرشد عباده إليها في عدة آيات:

منها: المطلقة؛ فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب، حزينه على فراق بعلها، أمر الله بتمتعها على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، متاعاً بالمعروف.

وكذلك: من مات زوجها عنها، فإن من تمام جبر خاطرها أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة، مرغّب^(١) فيها.

وكذلك: أوجب الله للزوجة على الزوج النفقة، والكسوة في مدة العدة إذا كانت رجعية، أو كانت حاملاً مطلقاً.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨].

ويدخل الواجب والمستحب في مثل قوله: ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].
وكذلك: إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصر منها مصبحين، وتواصوا ألا يدخلوها اليوم عليكم مسكين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٦].

وقد ذكر الله جبره لقلوب أنبيائه وأصفياه أوقات الشدائد، وإجابته لأدعيتهم بتفريج الكربات أوقات الحاجات والضرورات، وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمان، فهذا أصل قد اعتبره الله وأرشد إليه، فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في أوقات المناسبات، ويعتبره عند وجود سببه.

(١) هكذا في الأصل. وإنما يصح على أنه خبر مبتدأ محذوف (وهي وصية ومتعة مرغّب فيها)، ولا يخلو من تكلف. والمتجه هنا: النصب «مرغّباً».

القاعدة التاسعة والثلاثون

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا أعلى طريقة، وأقرب إلى حصول جميع المصالح الكلية، وإلى دفع المفاسد، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وإخباره عن المؤمنين ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْتَهُمُ﴾ [الشورى: ٣٨] فالأمر مفرد مضاف إلى المؤمنين، وفي الآية الأولى قد دخلت عليه «ال» المفيدة للعموم والاستغراق، يعني: أن جميع أمور المؤمنين، وشئونهم، واستجلاب مصالحهم، واستدفاع مضارهم، معلق بالشورى والتعاون على تعيين الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنبيهم الخلاف المفضي إلى تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصالح الديني والدنيوي هو طريق الشورى، فالمسلمون قد أرشدهم الله إلى أن يهتدوا إلى مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعيَّنت المصلحة في طريق سلوكه، وإذا تعيَّنت المضرَّة في طريق تركوه، وإذا كان في ذلك مصلحة ومضرَّة نظروا أيها أقوى، وأولى، وأحسن عاقبة، وإذا رأوا أمراً من الأمور هو المصلحة، ولكن ليست أسبابه عديدة عندهم ولا لهم قدرة عليها نظروا بأي شيء تُدرك تلك الأسباب، وبأي حالة تُنال على وجه لا يضر سلوكها، وإذا رأوا مصالحهم تتوقف على الاستعداد بالفنون الحديثة، والاختراعات الباهرة، سعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال على غيرهم الملقى إلى التهلكة، وإذا عرفوا - وقد عرفوا - أن السعي لاتفاق الكلمة، وتوحيد الأمة، هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية، جدُّوا في هذا واجتهدوا، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة، أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلوكوا ما تعيَّنت مصلحته، فيُقدِّمون في موضع

الإقدام، ويُخجَمون في موضع الإحجام، وبالجمله لا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية، دقيقة ولا جلية، إلا تشاوروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها، فهذا النظام العجيب الذي أرشد إليه القرآن هو النظام الذي يصلح في كل زمان ومكان، وفي كل أمة ضعيفة أو قوية.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] فهذه الآية نص صريح بوجوب الاستعداد للأعداء بما استطاعه المسلمون من قوة عقلية، ومعنوية، ومادية، مما لا يمكن حصر أفرادها، وفي كل وقت يتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. ونحوها من الآيات التي أرشد الله فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، فكل طريق وسبب يُتحرز به من الأعداء فإنه داخل في هذا، ولكل وقت لُبُوسه. وأن نكون منهم أبداً على حذر في وقت السلم فضلاً عن وقت الحرب وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم؛ لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية؛ لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم، حتى لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا، وألا نمكنهم من الاطلاع على أسرارنا الحربية ولا على مواردنا الاقتصادية فضلاً عن تمكينهم منها، وفضلاً عن أن نكون عالة عليهم فيها فكل ذلك وغيره داخل تحت قوله: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

ومن عجيب ما نبه عليه القرآن من النظام الوحيد: أن الله عاتب المؤمنين بقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فأرشد عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طرقها، بحيث لا يززعهم عنها فقد رئيس مهما كان عظيماً، وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة من القادة متساوين أو متقاربين في قوة القيادة والدربة والحنكة والسياسة الدينية والاقتصادية والحربية إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدّة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وجميع شئونها، قصدهم جميعاً: أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو فلا يستطيع أن يغتصبها بعض

حقوقها المادية في أرضها ومنافعها ولا بعض حقوقها في سيادتها وحريتها وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التي أنعم الله بها عليهم، ومكنهم بها من المحافظة التامة على حقوقهم في هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان أن الله ما استخلفهم في الأرض إلا لإصلاحها باستثمار خيراتها واستخراج دوائها وكنوزها وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات، مؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة على غيرهم، فإن سنة الله في هذا الوجود أن الحياة العزيزة لا تكون إلا لمن أكرم نفسه وأعزها بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهيناً ذليلاً لا يعرفه الوجود إلا تابعاً قد تلاشت شخصيته وانماح في متبوعه، ولقد خلق الله من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس في كل معاني الحياة العزيزة الكريمة حين فهموا هذا القرآن على وجهه الصحيح، وآمنوا به واهتدوا بهداه.

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أي: اتقوا الله واحذروا شديد غضبه وعقابه بالقيام بما أمركم به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين، بكل جهدكم وبكل ما أعطاكم من طاقة وقوى، فإن هذا هو حق تقواه، وأن يبذل العبد كل ما في وسعه وليست ناسخة لآية آل عمران، بل هي مفسرة لها، فكل مصلحة أمر الله بها وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة، فإنه يجب تحصيلها بحسب الاستطاعة، فلا يكلفهم الله ما لا يطيقون، وكذلك كل مفسدة ومضرة لا يمكن اجتنابها إلا بسلوك بعض الطرق السابقة واللاحقة فإنها داخلية في تقوى الله تعالى؛ وذلك أن لازم الحق، والوسائل لها أحكام المقاصد.

ومن الآيات الجامعة في السياسة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]. والآية التي بعدها. فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة، من أجلها الولايات الكبيرة، والصغيرة، والمتوسطة، الدينية، والدنيوية، فقد أمر الله أن تؤدى إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون، فهذا الطريق الذي أمر الله به في الولايات

من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها، والمدبرين لها، والعاملين عليها، ويجب تولية الأمثل فالأمثل ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] ولن يتم ذلك للأمة - على ما أرشد الله وأمر - إلا بأن يشعر كل واحد بالواجب عليه لنفسه وما لها وما عليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه وخدمه ومواليه وبهائمه وأرضه ومتجره، وكل شيء وضعه الله تحت يده واسترعاه إياه، ويقدر المسئولية أمام الله سبحانه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يَقَلِّبْ سَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] فيقوم بكل ما في مكنته وجهده لهذا الواجب غير متوانٍ ولا متواكل فعندئذ - وعندئذ فقط - تكون الأمة صالحة في أفرادها وأسرها وحكامها وأمرائها، فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة، وضده بضده، وأصدق البراهين على ذلك قول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فهل آن للذين يتجنون بالشكوى من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن الله سننه وحكمته فيعلموا أن الداء ليس في الحكام والولاة فقط، وإنما الداء في الأمة التي غفلت وغفل كل فرد فيها عن الواجب عليه فيما استرعاه الله من الرعية، وخيانتها لما استأمنه الله من أمانات، وأن الولاة إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التي تمثل الأمة وتصورها، ولكن أكثر الناس لا يعقلون!

ثم أرشدهم الله إلى الحكم بين الناس بالعدل، الذي ما قامت السماوات والأرض إلا به، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقدته تفسد الأمور كلها ويختل الميزان بكل شيء، والحكم بالعدل من لازمه معرفة حقيقة العدل في كل أمر من الأمور، فإذا كان المتولون للولايات هم الكُمَّل من الرجال، والأكفاء للأعمال، وجرت تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد، متجنِّبين للظلم والفساد، ترقَّت الأمة وصلحت أحوالها، وتماثل ذلك في الآية الأخرى التي أمر الله فيها بطاعة ولاة الأمور، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فهل يوجد أكمل وأعلى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع ما شرعه الله من الحدود على الجرائم، والعقوبات على المتجربين على حقوقه وحقوق عباده، وهي في غاية العدالة والحسن، وردع المجرمين، والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد، وتطهير المجتمع من فسادها، وتنقيته من جرائمهم، وفيها صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم، والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكلم بالحق مع من كان، وفي أي حال من الأحوال، وكذلك ما فيه من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة، التي معناها التكلم بالحق والدعوة إلى الصالح للأمة، وفي الأمور التي لا محذور فيها، كما أن الحدود والعقوبات، والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح، فيها ردع عن الحرية الزائفة الكاذبة التي يتمشدد بها الحمقى والسفهاء الذين عموا وصموا، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة؛ فإن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ، وأما إطلاق عنان الجهل والظلم، والأقوال الضارة للمجتمع، المحللة للأخلاق؛ فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد، المؤدية إلى الفوضى المحضة وانهلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة، فتتأجج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلًا للمصالح، ودفعًا للمضار والمفاسد، والله أعلم.

القاعدة الأربعون في دلالة القرآن على أصول الطب

أصول الطب ثلاثة: حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحماية عن الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد، وقد نبّه القرآن عليها في قوله تعالى في حفظ

الصحة ودفع المؤذي: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

فأمر الله بالأكل والشرب اللذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما، وأطلق ذلك ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان وينفعه في كل وقت وحال، ونهى عن الإسراف في ذلك: إما زيادة في كثرة المأكولات والمشروبات، وإما في كيفية التخليط في المطعم والأوقات.

وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان، فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب إذا صار بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر منه فكيف بغيره؟!

وكذلك أباح الله للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها، وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ، وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضره أكبر من هذا، ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة، فدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بتجنبه والتحرز عنه، وبمعالجة الحادث مما وقع فيه بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره الله في كتابه من الأعمال كلها: كالجهاد، والصلاة، والصوم، والحج، والإحسان إلى الخلق، وبقية الأعمال، فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضا الله، وقربه، وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحة للأبدان، وتمريناً لها، ورياضة، وراحة للنفس، وفرحاً للقلب، وأسراً خاصة تحفظ الصحة، وتنميها، وتزيل عنها المؤذيات، وبالجمله فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب، والأرواح، والأخلاق، والأبدان، والأموال، والدنيا والآخرة، والله أعلم.

القاعدة الحادية والأربعون

يرشد الله عباده في كتابه من جهة العمل

إلى قَصْرِ نظرهم إلى الحالة الحاضرة التي هم فيها

ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلى ما يترتب عليه
من المصالح، ومن جهة النعم وتقديرها إلى النظر إلى ضدها

وهذه القاعدة الجليلة دَلَّ عليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل على حكمة الله، ومن أعظم ما يرقى العاملين إلى خير ديني ودنيوي، فإن العامل إذا كان مشغلاً بعمله الذي هو وظيفة وقته، قصر فكره وظاهره وباطنه عليه فينجح ويتم له الأمر بحسب حاله، وإن تشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد شغل بها ثم استبعد حصولها ففترت عزيمته، وانحلت همته، وصار نظره إلى الأعمال الأخرى قليلاً ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمّة عليه، ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته، وقَلَّ نشاطه، وربما كان الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بخلاف من جمع قلبه وقالبه، وصار أكبر همه القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإنه إذا جاء العمل الثاني، فإذا هو قد استعدَّ له بقوة ونشاط، وتلقاه بشوق، وصار قيامه بالأول معونة على قيامه بالثاني، ومن هذا قوله تعالى مصرّحاً بهذا المعنى: ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكفّ الأيدي، فلما لم يقبلوا موعظة الله ضعفوا فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا كل الضعف عنه، ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أحد في قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] وقد كشف هذا المعنى كل الكشف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ

أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلْتُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٧٦﴾ [النساء: ٦٦]؛ لَأَن فِيهِ تَكْمِيلًا لِلْعَمَلِ الْأَوَّلِ، وَتَثْبِيثًا مِنَ اللَّهِ، وَتَمَرُّنًا عَلَى الْعَمَلِ الثَّانِي، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعَقَبَهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

فَاللَّهُ أَرْشَدَ الْعِبَادَ أَنْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ وَقْتِهِمْ، وَأَنْ يَقُومُوا بِالْعَمَلِ الْحَاضِرِ، وَوُضِيفَتْ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ الْعَمَلُ الْآخِرُ صَارَ وَظِيفَةُ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَاجْتَمَعَتْ تِلْكَ الْهَمَّةُ وَالْعَزِيمَةُ الصَّادِقَةُ عَلَيْهِ، وَصَارَ الْقِيَامُ بِالْعَمَلِ الْأَوَّلِ مُعِينًا عَلَى الثَّانِي، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ.

وَأَمَّا الْأُمُورُ الْمُتَأَخِّرَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْشِدُ الْعَامِلِينَ إِلَى مِلَاحَظَتِهَا لِتَقْوَى هِمَمِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ الْمُثْمَرِ لِلْمَصَالِحِ وَالْخَيْرَاتِ، وَهَذَا كَالْتَرغِيبِ الْمُتَنَوِّعِ مِنَ اللَّهِ عَلَى أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَالتَّرْهيبِ مِنْ أَفْعَالِ الشَّرِّ بِذِكْرِ عِقُوبَاتِهَا وَثَمَرَاتِهَا الذَّمِيمَةِ، فَاعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّظَرِ إِلَى الْعَمَلِ الْآخِرِ الَّذِي لَمْ يَجْعَ وَقْتُهُ، وَبَيْنَ النَّظَرِ إِلَى ثَوَابِ الْعَمَلِ الْحَاضِرِ الَّذِي كُلَّمَا فَتَرَتْ هَمَّةُ صَاحِبِهِ زَادَ وَهْنًا وَضَعْفًا، وَكُلَّمَا اتَّسَعَ أَمَلُهُ فِيمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ اسْتَجَدَّ نَشَاطُهُ، وَقَوِيَ عَلَيْهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ مُشَقَّتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وَأَمَّا إِرْشَادُهُ مِنْ جِهَةِ النِّعَمِ الَّتِي عَلَى الْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ بِالنَّظَرِ إِلَى ضِدِّهَا لِيَعْرِفَ قَدْرَهَا، وَيَزِدَّادَ شُكْرَهُ لِلَّهِ عَلَيْهَا، فَفِي الْقُرْآنِ مِنْهُ كَثِيرٌ، يَذْكُرُ عِبَادَهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمُ بِالْإِسْلَامِ، وَمَا تَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. أَيْ: تَهْتَدُونَ إِلَى الزِّيَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَالنِّعَمِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ

أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَيَغْلِبُوا عَلَيْكُمْ وَيَرْزُقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ التِّلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إلى آخر الآيات [القصص: ٧١] حيث يذكرهم أن ينظروا إلى ضد ما هم فيه من النعم والخير؛ ليعرفوا قدر ما هم فيه منها، وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(١)، وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُواْ آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إلى آخرها [الضحى: ٦-٨].

القاعدة الثانية والأربعون في أن الله قد ميز في كتابه بين حقه الخاص وحق رسوله الخاص، والحق المشترك

واعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة: حق لله وحده لا يكون لغيره، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادات. وحق لرسوله ﷺ خاص، وهو التعزير والتوقير، والقيام بحقه اللائق، والافتداء به. وحق مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، ومحبة الله ورسوله، وقد ذكر الله الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن؛ فأما حقه: فكل آية فيها الأمر بعبادته، وإخلاص العمل له، والترغيب في ذلك، وهذا شيء لا يحصى، وقد جمع الله ذلك في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فهذا مشترك ﴿وَتُعِزُّوهُ وَتُقِرُّوهُ﴾ فهذا خاص بالرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] فهذا حق لله وحده. وقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في آيات كثيرة. [النساء: ٥٩] وكذلك: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]

(١) البخاري (٦٤٩٠)، مسلم (٢٩٦٣).

وكذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢]. وقال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ فهذا مشترك ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] هذا مختص بالله تعالى.

ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما لله منه يثبت نظيره من كل وجه لرسوله، بل المحبة والإيمان بالله والطاعة لله، لا بد أن يصحبها التعبد والتعظيم لله والخضوع، وأما المتعلق بالرسول من ذلك فإنه حب في الله، وطاعة لأجل أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، بل حق الرسول على أمته من حق الله تعالى عليهم، فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالاً لأمر الله وعبودية له، وإنما قيل له: «حق الرسول» لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر الله به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء والكبير على الصغير، والصغير على الكبير وغيرهم، كله حق لله تعالى، فيقوم به العبد امتثالاً لأمر الله، وتعبدًا له، وقيامًا بحق ذي الحق، وإحسانًا إليه، إلا الرسول، فإن الإحسان منه كله إلى أمته، فما وصل إليهم خير إلا على يديه ﷺ تسليمًا.

القاعدة الثالثة والأربعون

يأمر الله بالتثبت وعدم العجلة

في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها،

ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة، قال تعالى في القسم الأول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية [النساء: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] وفي قراءة: (فَتَبَيَّنُوا) فيهما، وقد عاتب الله المتسرعين إلى

إذاعة الأخبار التي يُخشى من إذاعتها وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وألا يقول الإنسان ما لا يعلم، وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: فقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآيات [آل عمران: ١٣٣]، ﴿فَأَسْبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات، والآيات كثيرة في هذا المعنى.

وهذا الذي أرشد الله عباده إليه هو الكمال، أن يكونوا حازمين، لا يفوتون فرص الخيرات، وأن يكونوا متبشرين خشية الوقوع في المكروهات والمضرات ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

القاعدة الرابعة والأربعون

عند ميل النفوس أو خوف ميلها

إلى ما لا ينبغي يذكرها الله ما يفوتها

من الخير وما يحصل لها من الضرر بهذا الميل

وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة؛ لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي حتى يُقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات

التي تزيد ثمراتها الطيبة أضعافاً مضاعفة على الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ﴾ فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر نفوس الخلق عن الاستقامة قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من الفتنة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿هَتَانِ الْهَتْؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۖ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۖ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً، فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر، والله أعلم.

القاعدة الخامسة والأربعون

حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

هذه القاعدة من أهم القواعد، فإن القرآن كله لهذا المقصد نزل، والصلاح أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه الله، مقصوداً بها غاياتها الحميدة التي قصد الله إليها، فإن الله أمر بالصلاح في آيات متعددة والإصلاح، وأثنى على الصالحين والمصلحين في آيات أخرى؛ لأن أعمال الخير تُصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين لما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس، وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير، وإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين، في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨] فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية للمسلمين فإنه مصلح، والله يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم ما حث الله عليه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق المتنازع عليها بين الزوجين، والواجب أن يصلح بالعدل، ويسلك كل طريق توصل إلى الملاءمة بين المتنازعين، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتى إن الله تعالى أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحريون إلى المسالمة والمصالحة أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على الله.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها، أو إزالة المفساد والمضار أو تقليلها، الكلية والجزئية، المتعدية والقاصرة، والله أعلم.

القاعدة السادسة والأربعون

ما أمر الله به في كتابه: إما أن يوجهه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجهه لمن دخل فيه، فهذا أمره به ليصحح ما وجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد منه

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية، أصولها وفروعها، فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ [النساء: ٤٧] من القسم الأول، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] من الثاني والثالث، فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من

الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، والنهي عما يفسدها وينقصها، وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان؛ أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن^(١) كل مفسد ومنقص لذلك العمل، وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، والله قد هداهم للإسلام، جوابه ما تضمنته هذه القاعدة، ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل!! فافهم هذا الأصل الجليل النافع الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزًا، وهو في غاية اليسر والوضوح.

القاعدة السابعة والأربعون

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد الله أن يحكم عليها،

وذلك الحكم لا يختص بها بل يشملها ويشمل غيرها

جاء الله بالحكم العام

وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب، وأمثلة هذه القاعدة كثيرة منها: لما ذكر الله المنافقين وضمهم واستثنى منهم التائبين فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤٦﴾ فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن؛ ولئلا يُظن اختصاص الحكم بهم.

(١) قوله: «عن» مكرّر في الأصل.

ولما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] لم يقل: «وأعتدنا لهم» للحكمة التي ذكرناها. ومثله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ أي: هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤].

القاعدة الثامنة والأربعون

متى علق الله علمه بالأمور بعد وجودها

كان المراد بذلك العلم الذي يترتب عليه الجزاء

وذلك أنه قد تقرّر في الكتاب والسنة والإجماع أن الله بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن، والجليات والخفيات، والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال، وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع كذا، أو قدر كذا؛ ليعلم كذا. فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وأما علمه بأعمال العباد، وما هم عاملون قبل أن يعملوا، فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء؛ لأنه إنما يُجازي على ما وجد من الأعمال.

وعلى هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وما أشبه هذه الآيات كلها على هذا الأصل.

القاعدة التاسعة والأربعون

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى

وهذا من لطفه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] فنهاهم عن التمني الذي ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال وبلسان الحال، ولما سأل موسى عليه السلام رؤية ربه حين سمع كلامه ومنعه الله منها سلاًه بما أعطاه من الخير العظيم، قال: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتَكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠] وفي هذا المعنى آيات كثيرة.

القاعدة الخمسون

آيات الرسول هي التي يديها الباري ويبتديها، وأما ما أبداه المكذبون له واقتروه فليست آيات، وإنما هي تعنتات وتعجيزات

وبهذا يُعرف الفرق بينها وبين الآيات، وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل، وعلى صدق كل خبر أخبر الله به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث: «ما أرسل الله من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر»^(١). وأما ما أتى الله محمداً ﷺ من الآيات فهي لا تُحد ولا تُعد من كثرتها، وقوتها، ووضوحها، ولله الحمد، فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر، فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعيّنونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطمّأ أنفسهم على دينهم الباطل، وعدم اتباع النبي ﷺ، فلما دعاهم إلى الإيمان، وأراهم شواهد الآيات، أرادوا أن يبرّروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء بقولهم: اثبتنا بالآية الفلانية، والآية الفلانية، إن كنت صادقاً، وإن لم تأت بذلك فلا نصدقك!! فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف؛ ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا؛ لأنهم وطمّأ أنفسهم على الرضا بدينهم، بعدما عرفوا الحق ورفضوه، وأيضاً فهذا من جهلهم في الحال والمآل، أما الحال: فإن هذه الآيات التي تُقترح وتُعيّن جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم جزموا جزماً لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا، وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى. وهذا النوع ذكره الله في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جداً، كقولهم: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١] إلى آخرها.

وأيضاً فإن اقتراحهم هذا ينادي صريحاً بأنهم ينسبون إلى الله العجز والعبث؛ إذ إنه أرسل رسولاً لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة على صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوى خصمه، وهذا ينافي الحكمة ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل الله رسوله وهذا أعظم كفرًا وإجرامًا وأشد من شركهم وفسوقهم، وما كان يتولى كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء، ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلى قوله، ولذلك يدمغهم الله بميسم الخزي

(١) البخاري (٧٢٧٤)، مسلم (١٥٢).

عقب كل تحدٍّ واقتراح لآية بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به؛ فيقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٩٣] ثم يقول: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] ويقول: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (١٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (١٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧-٥٢] وأيضًا إذا تدبَّرت الاقتراحات التي عيَّنها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي لو فرض الإتيان بها تكون شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة، وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب، فكما أنه المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم وحقوقهم، وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال: ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا. فهو متجرئ على الله، متوثب على حرمان الله وأحكامه، فذلك براهين أحكامه لا يتولَّاهَا إلا هو، فمن اقترح شيئًا من عنده فقد ادَّعى مشاركة الله في حكمه ومنازعة في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

القاعدة الحادية والخمسون

كل ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على الداعين، تناول دعاء المسألة ودعاء العبادة

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء، ويدل على عموم ذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فسمي ذلك عبادة؛ وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب سؤله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال، فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك، وصيامك، وحجك، وأدائك لحقوق الله، وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقاً بأن قصدي من ذلك رضا ربي، ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه؛ ولهذا كانت هذه النية شرطاً لصحة الأعمال وقبولها وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] فوضع كلمة الدين موضع كلمة العبادة وهو في القرآن كثير جداً يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة، ومعنى الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم وأخلصوا له أعمال البر والطاعة.

وقد يُقيد أحياناً بدعاء الطلب، كقوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وأما قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢] فيدخل فيه دعاء الطلب؛ فإنه لا يزال ملحاً بلسانه، سائلاً دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة؛ فإن قلبه في هذه الحال يكون راجياً طامعاً، منقطعاً عن غير الله، عالماً أنه لا يكشف ما به من السوء إلا الله، وهذا دعاء عبادة.

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يدخل فيه الأمران؛ فكما أن من كمال دعاء الطلب كثرة التضرع، والإلحاح، وإظهار الفقر، والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة، فإن العبادة لا تتم ولا تكمل إلا بالمداومة عليها، ومقارنته الخشوع والخضوع لها، وإخفائها، وإخلاصها لله تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] فإن الرغبة والرغبة وصف لهم إذا طلبوا وسألوا، ووصف لهم إذا تعبّدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فكما أن من طلب من غير الله حاجة لا يقدر عليها إلا الله فهو مشرك كافر، فكذلك من عبد مع الله غيره فهو مشرك كافر. ومثله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة:

أما دعاء المسألة: فإنه يسأل الله تعالى في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة الله ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم، ومن سأل الرزق سألته باسم الرزاق، وهكذا.

وأما دعاء العبادة: فهو التبعّد لله تعالى بأسمائه الحسنى، فيفهم أولاً معنى ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه حتى يمتلئ قلبه منه، فالأسماء الدالة على العظمة والجلال والكبرياء، تملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله تعالى، والأسماء الدالة على الرحمة والفضل والإحسان، تملأ القلب طمعاً في فضل الله، ورجاءً لروحه ورحمته، والأسماء الدالة على الود والحب والكمال، تملأ القلب محبة ووداً وتألهاً، وإنابة لله تعالى، والأسماء الدالة على سعة علمه ولطيف خبره، توجب للعبد مراقبة الله تعالى والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرّ نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقاداً راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية، فنسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين.

القاعدة الثانية والخمسون

إذا وضع الحق وبان، لم يبق للمعارضة العلمية ولا العملية محل

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن، وأرشد إليها في مواضع كثيرة؛ وذلك أنه من المعلوم أن محل المعارضات وموضع الاستشكالات وموضع التوقفات ووقت المشاورات، إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح، فإذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحداً واضحاً، وقد تعيّن المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارض هنا لا يلتفت لاعتراضاته؛ لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] يعني: وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل؛ لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر قد اتضح أن مصالح الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه، وأي موجب له؟

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] أي: هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقيقته، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، كقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة ويطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعيّن مصلحته، وظهر وجوبه، فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد كشف الله هذا المعنى غاية الكشف في قوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ [الأنفال: ٦] أي: فكل من جادل في الحق بعدما تبين علمه أو طريق علمه، فإنه غالط شرعاً

وعقلاً. وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩] فلامهم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم، وهو أنه تعالى فصل لعباده كل ما حرم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان وبخ ولام المتوقفين عنه بعد البيان، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴿[الانشقاق: ٢٠، ٢١] ولما بين جلال القرآن، وأنه أعلى الكلام وأصدق وأنفع ثمرة، قال تعالى: ﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْنَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] ولما ذكر عظيم نعمه الظاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ [النجم: ٥٥] ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] وكذلك في آيات كثيرة يأمر بمجادلة المكذبين، ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحق التام، وإزالة الشبه كلها، انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً.

القاعدة الثالثة والخمسون

من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب

على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من مننه وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئاً

وهذه القاعدة تبين من لطف الله، وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة، ما هو أثر عظيم من آثار فضله، ونفحة عظيمة من نفحاته، وأنه أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١٦﴾ فبين تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها، وكثرة فوائدها العامة والخاصة، أنه فرضها على العباد وإن شقت عليهم، وكرهتها نفوسهم، لما فيها من التعرض للأخطار، وتلف النفوس والأموال، ولكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشيء، بل هي خير محض، وإحسان صرف من الله على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل من العز والكرامة في الدنيا والآخرة، لولاها لم يكونوا واصلين إليها.

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات - لقوة الداعي إليها - وفي الصبر على المصيبات، لشدة وقعها - كان الأجر أعظم، والثواب أكبر.

وقال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١١-١٢] فذكر مَنِّه على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسر بها العبادة، مزيلة لمشقتها، محصلة لثمراتها. وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] فالبشرى التي وعد الله بها أوليائه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها أنه ييسر لهم العبادات، ويهون عليهم مشقة القربات، وأنه ييسرهم للخير، ويعصمهم من الشر بأيسر عمل. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧] أي: لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها.

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوق حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في رضا الله تعالى، فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حمد الله وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها واحتسب الخير في عنائه ومشقته، ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.

القاعدة الرابعة والخمسون

كثيرًا ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته

وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة

وذلك أن الله خلق الإنسان وركَّب فيه القوى من السمع، والبصر، والفؤاد، وغيرها؛ ليعرف بها ربه، ويقوم بحقه، فهذا المقصود منها، وباستعمالها محررة من قيود التقليد - في التأمل والتفكير في آيات الله وسننه التي لا تبديل لها - يتحقق لصاحبها ما خلقت له فتنمو وتكمل، ويكمل صاحبها، ويفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من عدمها، فإنها حجة الله على عباده، ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا، فإذا أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها، وإما أن تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له؛ ولهذا كثيرًا ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكفار بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمى للأباء والسادة والرؤساء المنسلخين من آيات الله، وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقابًا علمية، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين، كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١] ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿[الأنعام: ٣٧]﴾ وَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم، وأرحام أمهاتكم وإخراجكم منها بشرًا سويًا وتسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعًا لكم، ثم ساق الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات، وبين سبب هذه الغفلة بقوله: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: ألغيناها وخلعها كارها لها ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] فما أعطيناها له إلا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته فيرتفع على درجات الكمال، ولكنه أخلد إلى أرض البهيمية رضا بالتقليد الأعمى الذي هو من خصائص الأنعام ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فأخبر أن صورها موجودة، ولكن فوائدها مفقودة، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الْقُحُورَ وَإِذَا دُعِيَ إِلَى الْكُفْرِ فَإِنَّكَ تَشْتَعِلُ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١] والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٥٠] أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء: ١٥٠، ١٥١] فثبت لهم الكفر من كل وجه، لأن دعواهم الإيمان بما يقولون: آما به من الكتب والرسول. لم يوجب لهم الدخول في الإيمان؛ لأن ثمرة إيمانهم مفقودة، حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ وغيره ممن كفروا به، وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم من الطريق الذي أثبتوا به رسالة من ادعوا الإيمان به، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا لَيْتَ أَمَّا يَوْمُ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] لما كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان، وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائده وثمرته، ويشبه هذا ترتيب الباري كثيرًا من الواجبات والفروض على الإيمان، كقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢] ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

وقال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢] الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، ويقتضي اجتناب المحرمات، فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق؛ ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسوله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]. ونظير ذلك قول موسى عليه السلام لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَلَتَّخِذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] فكما أن فقد العلم جهل، ففقد العمل به جهل قبيح.

القاعدة الخامسة والخمسون

**يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ عَمَلُهُ الَّذِي بَاشَرَهُ، وَيُكْمَلُ لَهُ مَا شَرَعَ فِيهِ
وَعَجَزَ عَنْ تَكْمِيلِهِ قَهْرًا عَنْهُ، وَيُكْتَبُ لَهُ آثَارُ عَمَلِهِ**

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن:

أما الأعمال التي بآشرها العبد فأكثر من أن تحصى النصوص الدالة عليها، كقوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١] ونحو ذلك.

وأما الأعمال التي عجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا

إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴿[النساء: ١٠٠]﴾ فهذا خرج للهجرة وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتى الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره، فكل من شرع في عمل من أعمال الخير ثم عجز عن إتمامه بموت، أو عجز بدني، أو عجز مالي، أو مانع داخلي، أو خارجي، وكان من نيته إكماله - فقد وقع أجره على الله، فإنما الأعمال بالنيات، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء أكمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: باسروا عمله ﴿وَوَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] التي ترتبت على أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة. وقال في المجاهدين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] فكل هذه الأمور من آثار عملهم، ثم ذكر أعمالهم التي باسروها بقوله: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١].

والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان، كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط فيعطيه الله أولاداً صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين - أن يقع ذلك بقصده، كمن علّم غيره علماً نافعاً، فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك فإنه من آثار عمله، وكمن يفعل الخير ليقندي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله، وكذلك من يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمور دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره،

فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي على هذا العمل فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله أجراً وعوضاً؛ فإن الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، وراميه، والمُمدّ به^(١).

القاعدة السادسة والخمسون

**يرشد القرآن المسلمين إلى قيام جميع مصالحهم،
وأنه إذا لم يمكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من
مصلحتهم من يقدر على القيام بها، ويوفر وقته عليها، لتقوم
مصلحتهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة**

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية الحكيمة، فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها، فالطريق إلى حصولها: ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت، وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وقال تعالى: ﴿فَانْقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُرُوءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالات على هذا الأصل الجليل، والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها؛ لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائراً في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق؛ لاستقامت أحوالهم، وصلحت أمورهم، وانجابت عنهم شُرور كثيرة، فالله المستعان.

(١) أبو داود (٢٥١٣)، الترمذي (١٦٣٧)، النسائي (٣١٤٦)، ابن ماجه (٢٨١١).

القاعدة السابعة والخمسون في كيفية الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية

قد دعا الله عباده إلى التفكير في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آيات وعبراً، نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا، فينبغي لنا أن نسلك هذه الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك على وجه الإجمال أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه، هذا أمر بديهي، فتيقناً أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل القدرة، عظيم السلطان، واسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام، والإتقان، والحسن، والإبداع، عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه، وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصداً وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرى.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تُعد ولا تُحصى عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود، والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دال على إرادة الله، ونفوذ مشيئته، ونعرف من ذلك كله أن من هذه أوصافه، وهذا شأنه، هو الذي لا يستحق العبادة أحد سواه، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه،

ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له، لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إلى الله في جميع شئونها، ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها، وموادها، وأرواحها، قد مكّن الله آدميين من استخراج أصناف المنافع منها، عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلطنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يصلح أحوالنا منها بحسب القدرة، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نزعّم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة بحجة أن الكفار سبقونا إليها وفاقونا فيها؛ فإنها كلها - كما نبّه الله عليه - داخله في تسخير الله الكون لنا، وأنه يعلم الإنسان ما لم يعلم.

القاعدة الثامنة والخمسون

**إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفياه بالصفات
الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال**

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن، منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء، ثم امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحيث نبأهم آدم عنها فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالى إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير رأى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من لديه علم ومعرفة، فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عبّر بها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سحّار عليهم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم، وألقى السحرة

عَصِيَّتِهِمْ وَحِبَالَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ، وَأَظْهَرُوا لِلنَّاسِ مِنْ عَجَائِبِ السَّحْرِ ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيتهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه جميع أعدائه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب؛ فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه الشديد حُرْدُهُ، القوي مكروه، الذي جمع كل كيده ليقوع به أشد الأخذات، وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر، كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض فقال: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السَّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] وقريب من هذا نصره إياه يوم حنين، حيث أعجبت الناس كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئاً، وضائق عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولّوا مدبرين، وثبت الله نبيه ﷺ فأنزل الله عليه سكينته ونصره في هذه الحالة الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه.

وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفياه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس، أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب، وليعرف العباد أطياف علام الغيوب.

ويقارب هذا المعنى: إنزاله الغيث على العباد بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله مبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله، والاستبشار بفضله ما يملأ القلوب حمداً وشكراً وثناءً على الباري تعالى.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ

سَمِعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَنَّم عَلَى قُلُوبِكُمْ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴿[الأنعام: ٤٦]﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[القصص: ٧١-٧٣]﴾.

ونلّمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه حين اشتدت بهم الأزمة، ودخلوا على يوسف وقالوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨] ثم بعد قليل قال: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] في تلك النعمة الواسعة، والعيش الرغيد، والعز المكين، والجاه العريض، فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل^(١).

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يُذَكِّر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النعم لئلا تسترسل النفوس للجزع؛ فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكر الله المؤمنين حين أُصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين بيد، فقال: ﴿أَوَلَمْآ أَصِيبَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] وكذلك ييسر الله عبده بالمخرج من المصائب قبل أن تقلع عنه؛ ليكون هذا الرجاء مُخَفِّفًا لما نزل به من البلاء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا تذكرها رجا الفرج، وهبَّ على قلبه نسيم الرجاء؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وكذلك قوله تعالى لأم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

(١) من هذا الموضع بداية القطعة الموجودة من النسخة (ب).

وأعم من هذا كله أن وَعَدَ الله لرسله بالنصر وتمام الأمر وحسن العاقبة؛ هَوْنٌ عليهم المشقات، وسَهْلٌ عليهم الكريهات، فتلقوها بقلوب مطمئنة، وصدور منشرحة، وألطف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

القاعدة التاسعة والخمسون

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾

ما أعظم هذه القاعدة، وما أحكم هذا الأصل العظيم الذي نصَّ الله عليه نصًّا صريحًا، وعمَّم ذلك ولم يقيده بحالة من الأحوال، فكل حال هي أقوم في العقائد والأخلاق والأعمال والسياسات الكبار والصغار والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها ويرشد إليها ويأمر بها ويحث عليها. ومعنى «أقوم» أي: أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا.

فأما العقائد: فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وغذاؤها وحياتها وكمالها؛ فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها، وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيمًا له وتألها وتعبدًا وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها: فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل من الصبر والحلم والعفو وحسن الخلق مع الله ومع الخلق والأدب، وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق يؤلف القلوب ويجمع المتفرق، ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله، وحقوق عباده على أكمل الحالات وأجلها وأسهلها، وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته، والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامله، فكل مصلحة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها فإن القرآن يرشد إليها نصًّا أو ظاهرًا أو دخولًا تحت قاعدة من قواعده الكلية، وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاءه.

وبالجملة فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السنة من الأوامر والنواهي والإخبارات كلها تفصيل لهذا الأصل المحيط، وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع أو طريق صلاح يحرمه القرآن، والله تعالى ولي الإحسان.

القاعدة الستون

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها
في كتابه أن القصص المبسطة يُجملها
في كلمات يسيرة ثم يبسطها، والأمور المهمة ينتقل
في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها

وهذه قاعدة نافعة؛ فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة؛ وذلك أن القصة إذا أُجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، وقع إيضاح وبيان تام كامل لا يقع ما يقاربه لو فصّلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال.

وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك: في قصة أهل الكهف قال في تصويرها الجملي: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَى ءِذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩-١٢] فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزُبدتها، ثم بسطها بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣]. الآيات إلى آخر القصة.

وكذلك: في قصة موسى لما قال تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٣-٦] هذا مجملها، ثم وقع التفصيل. وقال في قصة آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. فأجملها، ثم وقع بعده التفصيل.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه فكثير:

منه: قوله تعالى في الإنكار على من جعل مع الله إلهاً آخر وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله لأنهم النور الذي انبثق منه ثم تجسدوا بشرًا ثم عادوا إلى النورانية فيقول: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ فأبان أن قولهم هذا قول بلا علم، ومن المعلوم أن القول بلا علم من الطرق الباطلة، ثم ذكر قبحه فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ثم ذكر مرتبة هذا القول من البطلان فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وقال في حق المنكرين للبعث: ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: علمهم فيها علم

ضعيف سافل إلى أخط الدركات لا يُعتمد عليه، ثم ذكر ما هو أبلغ منه فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح عليه السلام في تقرير رسالته عند من كذبه وزعم أنه في ضلال مبين: ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ فلما نفى الضلالة من كل وجه أثبت بعده الهدى الكامل من كل وجه، فقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم انتقل إلى ما هو أعلى من ذلك، وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه ومادته، فقال: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِيَمِيزَكُمْ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ وَأَعْلَمُ مِنْكُمْ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢] وكذلك هود عليه السلام.

وقال في تقرير رسالة أكمل الرسل وخاتمهم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] فنفى عنه ما ينافي الهدى من كل وجه، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ إلى آخر الآيات [النجم: ٤] وهو في القرآن كثير جدًا، كانتقاله من ذكر هبته الولد لذكريا على كبره وعقم زوجته إلى ذكر مريم وعيسى، وكذلك أمر بالتوجه إلى الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها، وهذا في القرآن كثير.

القاعدة الحادية والستون

**معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع؛
حث الله عليه حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص**

وذلك أن الله رتب كثيرًا من الأحكام العامة والخاصة على مُدد وأزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذاً على ضبط تلك المدة وإحصائها وتحديدها، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] فقله: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل فيه

مواقيت الصلوات والصيام والزكاة والعقود وغيرها، وخصّ الحج بالذكر لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات الخاصة والعامة، وكذلك مواقيت للعِدِّ والديون والإجازات، وغيرها.

وقال تعالى لما ذكر العدة: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] وقوله في الصيام: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: ٢٢٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢] وذلك لمعرفة قدرة الله في إفاقتهم، فإنهم لو استمروا على نومهم لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة مصلحة في الدين، أو في الدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن، ويقارب هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَظَمَةَ السِّنِينَ وَالْحَسَابِ﴾ [الإسراء: ١٢] ونحوها من الآيات.

القاعدة الثانية والستون

الصبر أكبر عون على كل الأمور،

والإحاطة بالشيء علماً وخبراً هو الذي يعين على الصبر

وهذه القاعدة عظيمة النفع، قد دل القرآن عليها صريحاً وظاهرًا في أماكن كثيرة، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أي: استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شئونكم، بالصبر؛ فإن الصبر يسهل على العبد القيام بوظيفة الطاعات، وأداء حقوق الله، وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلباً لرضا مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات، ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبنى عليها ولا يمكن وجوده بدونها؛ هو معرفة الشيء الذي يصبر عليه،

وما فيه من الفضائل، وما يترتب عليه من الثمرات، فمتى عرف العبد ما في الطاعات من صلاح القلوب، وزيادة الإيمان، واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والردائل، وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة، وما لمن قام بوظيفته فيها من الأجور، هان عليه الصبر على جميع الشدائد.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل العمل والفضائل كلها؛ ولهذا كثيراً يذكر الله في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة إنما ذلك لقصور علمهم وعدم إحاطتهم التامة بها، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧] ليس معناه أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، وإنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات، وأنواع المضرات، وزوال المنافع.

وقال تعالى مبيناً أنه تقرر أن الذي لا يعرف ما يحتوي عليه الشيء يتعذر عليه الصبر، فقال عن الخضر لما ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ - ٦٨] فعدم إحاطته به خبراً يمتنع معه الصبر، ولو تجلد ما تجلد فلا بد أن يعال^(١) صبره.

وقال تعالى مبيناً عظمة القرآن، وما هو عليه من الجلالة والصدق الكامل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩] فأبان أن الأعداء المكذبين به إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه كما هو لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان، فهم وإن كانت الحجة قد قامت عليهم ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته. وقال في حق المعاندين الذين بان لهم علمه، وخبروا صدقه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال الله تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] والمقصود أن الله أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى

(١) أي: ينقطع. انظر: القاموس (ع و ل).

الأمر، ومعرفة حقائقها، وما فيها من الفضائل أو الرذائل. والله أعلم.

القاعدة الثالثة والستون

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان إيمانه وعمله
الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة، أو بإعطاء
الله للعبد من الدنيا، أو بالرياسات، كل ذلك من طرق المنحرفين

والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذه القاعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾
[سبأ: ٣٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].
وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة آيات.

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين: فقال عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ
الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] ثم ذكر البرهان الذي من أتى به فهو المستحق للجنة فقال:
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾
[البقرة: ١١٢] وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ
بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ
عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم بتفوقهم في الأمور الدنيوية
والرياسات، ويذمون المؤمنين، ويستدلون على بطلان دينهم بنقصهم في هذه الأمور!! وهذا

من أكبر مواضع الفتن، فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة برها وفاجرها.

القاعدة الرابعة والستون الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد ترد على الحق والأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضحل وتزول

وهذه قاعدة شريفة جليلة، قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما أوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة الله تعالى في ورودها على الحق الصريح لأسباب مزعجة تدفعها، أو لشبه قوية تُحدثها، ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، فزهق الباطل، وثبت الحق، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حكمٌ بالغة، وأيادٍ سابعة، ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها أن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أكمل الخلق إيماناً، و يقيناً، وتصديقاً بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوه في الرسل أنهم قد بلغوا ذروته العليا، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض من الأمور المزعجة المنافية حساً لما علم يقيناً ما يوجب لهؤلاء الكُمَّل أن يستبطنوا معه النصر، ويقولوا: ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] وقد يقع في هذه الحالة على القلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات، وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال، ويصير لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة أمر كبير لا يحصل بدون هذه الحالة؛ ولهذا قال: ﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾

[يوسف: ١١٠] فهذا الوارد الذي لا قرار له - ولما حقت الحقائق اضمحل وتلاشى - لا ينكر ولا يُطلب للآيات تأويلات مخالفة لظاهرها.

ومن هذا الباب، بل من صريحه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢] أي: يلقي من الشبه ما يعارض اليقين، ثم ذكر الحُكْمَ العظيمة المترتبة على هذا الإلقاء، وأن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يُبطل ما يُلقى الشيطان، ويحكم آياته، والله عليم حكيم، فقد أخبر بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء لهذه الحُكْم التي ذكرها، فمن أنكر وقوع ذلك بناء على أن الرسل لا ريب ولا شك معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة فقد غلط أكبر غلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل قولاً خالف فيه الواقع، وخالف نص الآيات الكريمات ويطلب التأويلات المستبعدات.

ومن هذا - على أحد قولي المفسرين - قوله تعالى عن يونس: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وأنه ظنَّ عرض في الحال ثم زال، نظير الوسوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرها العبد حين تَرُدُّ على قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها؛ ولهذا قال ﷺ عندما شكى إليه أصحابه هذه الحال التي أفلقتهم مبشراً لهم: «الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة»^(١)، وأخبرهم أن هذا صريح الإيمان.

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة، أو غضب، وأن المؤمن كامل الإيمان قد يَرُدُّ في قلبه هَمٌّ وإرادة لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب، ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض. ومن هذا قوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤] وهو أنه لما رجع إلى ما معه من الإيمان، ومراقبة الله، وخوفه، ورجائه، دفع عنه هذا الهم، واضمحل، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه؛ ولهذا بعد

(١) أحمد (٢٠٩٧)، أبو داود (٥٠٩٠).

المعالجة الشديدة التي لا يصبر عليها إلا الخواص من الخلق قال ﷺ: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وكان أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»^(١). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان، أو الذي يعرض في إرادته، فإذا مَسَّهُمْ تذكروا ما يجب من يقين الإيمان، ومن واجباته، فأبصروا، فرجع الشيطان خاسئاً وهو حسير. ولعل من هذا قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوْءَاوَيْتُ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] وقول النبي ﷺ: «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»^(٢). يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط ﷺ في تلك الحال الحرجة، والنظر للأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه التام بقوة ذي العظمة والجلال.

القاعدة الخامسة والستون

قد أرشد القرآن إلى منع الأمر المباح

إذا كان يفضي إلى محرم أو ترك واجب

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: «الوسائل لها أحكام المقاصد».

فمنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. وقوله

(١) البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

(٢) البخاري (٣٣٧٢)، مسلم (١٥١).

تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. وقد ورد بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير، فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوصل بها إليه، إن توصل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأموراً بها، وإن توصل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب كانت محرمة منهيًا عنها، وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.

القاعدة السادسة والستون من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات

وهذه قاعدة جليلة، فإن أكثر الناس يقصر نظره على نفس اللفظ الدال على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت صدور ذلك الفعل والقول، واللفظ اللبيب ينظر إلى الأمرين، ويعرف أن هذا لهذا، وهذا ملازم لهذا، وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل، ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر، فمن ذلك قوله عن عباد الرحمن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وذلك صادر عن وقارهم، وسكيتهم، وخشوعهم، وعن حلمهم الواسع، وخلقهم الكامل، وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين.

ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِبِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] يدل مع ذلك على حسن إدارة الملك، وكمال السياسة، وحسن النظام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا

نَبِّئِ الْجَاهِلِينَ ﴿[القصص: ٥٥] يدل على حُسن الخُلُق، ونزاهة النفس عن الأخلاق الرذيلة، وعلى سعة عقولهم، وقوة حلمهم واحتمالهم.

ومثل الإخبار عن أهل الجاهلية بتقتيل أولادهم خشية الفقر، أو من الإملاق، يدل على شدة هلعهم، وسوء ظنهم بربهم، وعدم ثقتهم بكفايته. وكذلك قوله عن أعداء رسوله: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧] يدل على سوء ظنهم بالله، وأن الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته. وأمثلة هذا الأصل كثيرة واضحة لكل صاحب فكرة حسنة^(١).

(١) تنبيه: في هذا الموضع من النسخة الأخرى كتب الشيخ رحمه الله قاعدة أخرى مغايرة لما أثبتته هنا، ولتمام الفائدة نقلتها هنا فهو يقول: «القاعدة السادسة والستون: أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها: توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها؛ وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات، وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده الصلاح، وبفقدته الشر والفساد. وجميع الآيات القرآنية إما أمر به، أو بحق من حقوقه، أو نهى عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين، ويُقال له: «توحيد الإلهية» باعتبار أن الله ذو الألوهية، وأن الألوهية وصفه الدال عليها الاسم العظيم وهو الله. وهي جميع صفات الكمال. ويُقال له: «توحيد العبادة» باعتبار وصف العبد بإخلاص العبادة لله تعالى. وتحقيقها في العبد: أن يكون عارفاً بربه، مخلصاً له جميع عباداته، محققاً ذلك بترك الشرك، صغيره وكبيره، واتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، والسلامة من كل بدعة وضلالة، وبموالاة أهله، ومعاداة ضدهم. وهذا الأصل، الذي هو أكبر الأصول وأعظمها، قد قرره شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد، وذكر من تقريره وتفصيله وتحقيقه، ونفي كل ما يضاده ما لا يوجد في كتاب غيره، بل كتابه المذكور لا يخرج عنه.

والقرآن يقرره بطرق متنوعة، وقد تقدم في أول هذه القواعد شيء من ذلك، وقد ذكرنا في التفسير ثمانية طرق كلية في تقرير هذا الأصل، وصورة ما ذكرناه على قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الآية [محمد: ١٩] بعدما ذكرنا تفسيرها: وللطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله، أمور:

= أحدها: بل أعظمها: تدبّر أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله، وعظمته، وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل، الذي له كل حمد، ومجد، وجلال، وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالالوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية والأخروية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه، القائمين بتوحيده، من النصر، والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة الطواغيت التي فتنت الناس وصرفتهم عن كتبه ورسله، ومعرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدَت مع الله، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبديها نفعا ولا ضرا، ولا حياة ولا نشورا، ولا تنصر من عبدها، ولا تنفعه بمثقال ذرة؛ من جلب خير، أو دفع شر؛ فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا الله، وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه، وهو أعظم ما فيها.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا، وعقولا، وعلمًا، ورأيًا، وإصابة، وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون، قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه من الأدلة الآفاقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا هو قد أبداه في كتابه وأعادها بطرق وأساليب متنوعة إلى آخر ما ذكرنا هناك. وكل رسول أول ما يدعو قومه إلى هذا التوحيد ويقرره لهم بنحو مما ذكرنا من هذه الأدلة.

القاعدة السابعة والستون

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر

المعلوم المحقق عند ورود الشبهات والتوهمات

وهذه قاعدة جلية يعبر عنها: «أن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقق» ونحوها من العبارات. وقد أرشد الله إليها في مواضع كثيرة؛ منها لما أخبر تعالى عن الراسخين في العلم وأن طريقتهم في المتشابهات أنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فالأمور المحكمة المعلومه يتعين أن يرجع إليها الأمور المشتبهة المظنونة.

وقال تعالى في زجر المؤمنين عن القدح في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] فأمرهم بالرجوع إلى ما علم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه ويقدح فيه.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكَوْنُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله فيه من آذاه؛ لأنه لا يكون وجيهاً عند ربه حتى يسلم من جميع النقائص، ويتحلَّى بجميع الكمالات اللاتقة بأمثاله من أولي العزم، فيحذر الله هذه الأمة أن يسلكوا مسلك اليهود المغضوب عليهم القساة القلوب الذين أعلنوا معاداة الأنبياء واحتقارهم، مهما عاد عليهم من الخير العظيم من تعظيم الأنبياء حتى لم يسلم من آذاهم موسى الذي شرفهم بالانتساب إليه، فقد جعل الله نجاتهم من سوء العذاب والتقتيل على يده مع وجاهته عند ربه، فالله يحذر المؤمنين أن يتشبهوا ببني إسرائيل فيؤذوا أعظم الرسل جاهاً عند الله، وأرفعهم مقاماً ودرجة

وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحساناً إلى الخلق. وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبا: ٦].

القاعدة الثامنة والستون

ذكر الأوصاف المتقابلات يغني

عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلوماً^(١)

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة، يذكرها في المقامات المهمة، كالمقابلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وبين إلهية الحق وإلهية ما سواه، فيذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقل بالبداهة التفاوت بينها، مما يدع التصريح بالمفاضلة إلى العقل، قال تعالى: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والآيات التي بعدها [النمل: ٥٩، ٦٠]. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقال مثلها: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ أَمَّا أَلِيلٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩] فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة لعلمه من المقام، فقوله: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ أَمَّا أَلِيلٌ﴾ إلى آخرها. يعني: كمن ليس كذلك. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب، كقوله: ﴿أَفَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

(١) تنبيه: هذه القاعدة غير موجودة في نسخة ب.

ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي، وما يدعو إليه، وأعظم الناس معارضة له قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦٥] ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وذلك أنه إذا مُيزت الأشياء تمييزاً تاماً، وعُرفت مراتبها في الخير والشر، والكمال والنقص، صار التصريح بعد ذلك بالترتيب لا معنى له، والله أعلم.

القاعدة التاسعة والستون من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة، فمنها ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله فعوّضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين. وإبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب، والذرية الصالحة. ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه وعصمه من الوقوع مع امرأة العزيز مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته وصبر على السجن وأحبه وطلبه ليعيد دائرة الفساد والفتنة عوضه الله بأن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء مما أحل من الأموال والنساء والسلطان. وسليمان عليه السلام لما ألهمته الخيل عن ذكر ربه فأتلفها عوضه الله: ﴿الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رَبِّهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ﴾ [ص: ٣٦، ٣٧].

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، وهب لهم من رحمته، وهياً لهم أسباب التوفيق والراحة، وجعلهم سبباً لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق جميع لذات الدنيا.

القاعدة السبعون

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين، ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية، ما يدل على هذا الأصل، ويُعرّف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن، وأصوله، وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وشرائعه، ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات فنقول: أهل الشر والفساد نوعان:

أحدهما: المبطلون في عقائدهم، وأديانهم، ومذاهبهم، الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء، وإقامة الحجج والبراهين على فساد أقوالهم شيء كثير، لا يأتي مبطل بقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح، والبرهان الجلي، ففيه الرد على جميع المبطلين من الدهريين، والماديين، والمعطلين، والمشرّكين، والمتمسّكين بالأديان المبدلة والمنسوخة من اليهود، والنصارى، والأميين، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] يذكر الله حجج هؤلاء وينقضها، ويبيد من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذه الجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني من المقاومين للأديان، والدنيا، والسياسات، والحقوق: الشيوعيون الذين انتشر شرهم، وتفاقم أمرهم، وسرت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم، ولم يكن عند الأكثرين ما يرد صولتهم، ويقمع شرهم، وإنما عندهم من الأصول والعقائد والأخلاق والسياسات ما يمكن أمثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد، ولكن - ولله الحمد - القرآن العظيم، والدين القويم، قد تكفل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم، وفيه من الأصول، والأخلاق، والآداب الراقية ما يردهم على أعقابهم منهزمين، بما فيه من العدل، ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم، وما فيه من إيجاب الزكاة، والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمضطرين، ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية، ووجوب حفظ الأملاك، والحقوق، كل هذا أعظم سد، وأحكم حصن، للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين، وكذلك ما حض عليه القرآن من لزوم الآداب العالية، والأخلاق السامية، والأخوة الدينية، والرابطة الإسلامية - يمنع من تغلغل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق، وانحلال الآداب، وتحلل الروابط النافعة، والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون، فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية، والتسلط على العباد بالقهر، والاستعباد، والطمع، والجشع، فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج، المخرب، المدمر ما مرَّ عليه، فما معهم سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تجابه قوتهم؛ لكونهم لم يتمسكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية، والصلاح والإصلاح، والعدل، ودفع الظلم، والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب، بل تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، فإذا جاء هؤلاء المفسدون بالتعطيل المحض، والإنكار الصُّرف أبدى القرآن من الحجج والبراهين على وجود الله، وعظمته، وتوحيده، وصدقه، وصدق من جاء به ما تصدَّع له الجبال، وتخضع له فحول الرجال، وإذا تسرَّب هؤلاء الأشرار بتوسط الأخلاق الرذيلة، وانحلال الآداب الجميلة، ووجدوا مسلكًا في هذا الطريق يعينهم على تنفيذ باطلهم جاءهم هذا القرآن بالحث على الأخلاق العالية، والأعمال الصالحة، والآداب الجميلة، التي لا تدع للشر على صاحبها

سيلاً. وإذا قالوا بالفقر ووجوب المساواة، واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة، على استعبادهم للعباد، واستبدادهم بالأملاك والأموال، ولم يجد هؤلاء قوة عليهم، وليس بهم طاقة بوجه من الوجوه، تصدَّى هذا القرآن العظيم بعدله وقسطه، وإيجابه الحقوق المتنوعة - الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات - لصدهم، ومقاومتهم، وإبطال كل ما به يصلون ويحولون.

ثم إذا أبرز بصلاحه وإصلاحه العظيم، ونظامه الحكيم، وهديه القويم، وحته على سلوك الصراط المستقيم، ونوره الساطع، وحججه القواطع، لم يبق في وجهه باطل إلا محقه، ولا شر إلا سحقه، ولا بقي من قُضد الحق والصواب إلا اختاره واعتنقه، ولا تأمله صاحب عقل ورأي إلا خضع له، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القاهر لكل من قاومه في كل الأمور.

القاعدة الحادية والسبعون في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود في وضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي ترجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفصيلها، فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الكريم، فإن كثيراً منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج، فمنها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿هَلْ جَزَاءُ

الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿﴾ [الرحمن: ٦٠] ﴿﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿﴾ [الواقعة: ١٠] ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ ﴿﴾ الآية [النحل: ٩٠] ﴿﴾ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ ﴿﴾ [المائدة: ٢] ﴿﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿﴾ [النحل: ٩٧] ﴿﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿﴾ [الزلزلة: ٨، ٧] ﴿﴾ وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ
يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴿﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿﴾ وَمَا تَفْعَلُوا مِّنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴿﴾ [البقرة: ١٩٧]
﴿﴾ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ۖ ﴿﴾ [النساء: ١٢٣] ﴿﴾ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿﴾ [الزمر: ١٠]
﴿﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴿﴾ [النساء: ٩٤] ﴿﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن
جَاءَكُم فَاسْقُوا بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا ﴿﴾ [الحجرات: ٦] ﴿﴾ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴿﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿﴾ وَشَاوَرَهُمْ فِي
الْأَمْرِ ﴿﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴿﴾ [النساء: ٤٠]
﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ﴿﴾ [يونس: ٤٤] ﴿﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِّنْ خَيْرٍ مَُّحْضَرًا
وَمَا عَمِلَتْ مِّنْ سُوءٍ تَوَدُّ ﴿﴾ الآية [آل عمران: ٣٠] ﴿﴾ وَالصَّلَاحُ خَيْرٌ ﴿﴾ [النساء: ١٢٨] ﴿﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿﴾ [يونس: ٨١] ﴿﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ
لِّنَفْسٍ شَيْئًا ﴿﴾ [الانفطار: ١٩] ﴿﴾ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿﴾ [الجن: ١٨] ﴿﴾ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴿﴾
[البقرة: ٢٢] ﴿﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿﴾ [الزمر: ٣] ﴿﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿﴾ [غافر: ١٤].
﴿﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿﴾ [التغابن: ١٦] ﴿﴾ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿﴾ [هود: ٣] ﴿﴾ إِن أُرِيدُ إِلَّا
الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴿﴾ [هود: ٨٨] ﴿﴾ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴿﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿﴾ وَلَا تَبْخُسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿﴾ [الأعراف: ٨٥]. ﴿﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴿﴾ [هود: ١١٢] ﴿﴾ فَاسْتَقِيمُوا
إِلَيْهِ ﴿﴾ [فصلت: ٦] ﴿﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ [هود: ١١٥] ﴿﴾ إِنَّ الْحَسَنَاتِ
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴿﴾ [هود: ١١٤] ﴿﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴿﴾ [يوسف: ٢٤] ﴿﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ [الصافات: ٨٠] ﴿﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴿﴾ [الرعد: ٢١] ﴿﴾ وَجَزَّوْا سَنِيَّةً سَنِيَّةً مِّثْلَهَا ﴿﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿﴾ وَإِن عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴿﴾ [النحل: ١٢٦] ﴿﴾ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى

عَلَيْكُمْ ﴿البقرة: ١٩٤﴾ ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ﴿الإسراء: ٩﴾ ﴿يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ﴾ ﴿الجن: ٢﴾ ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿الإسراء: ١٥﴾ ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ
سَبِيلٍ﴾ ﴿التوبة: ٩١﴾ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿الأعراف: ١٥٧﴾ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿الشورى: ٤٠﴾.
﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿الكهف: ٤٦﴾ ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿مريم: ٧٦﴾.
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ ﴿البقرة: ١٨٥﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ
مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿الحج: ٧٨﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا مَاءً مَاتَهَا﴾ ﴿الطلاق: ٧﴾ ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ
اللَّهُ﴾ ﴿الطلاق: ٧﴾ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿الأحزاب: ٤﴾ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ
إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿الفرقان: ٣٣﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾
﴿الأحزاب: ٢١﴾ ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿الحشر: ٧﴾.
﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ﴿الأحزاب: ٥٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا أَكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿الأحزاب: ٥٨﴾ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ
مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ﴿الأنفال: ٦٠﴾ ﴿رَبَّنَا ءَانِسَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿البقرة: ٢٠١﴾.

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها، كل منها قاعدة وأصل كلي، يحتوي على معاني كثيرة،
وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعني بمعرفة
معانيه، ولله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد يسر الله ما من علينا بجمعه، فجاء والله
الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتاباً يسر الناظرين، ويعين على فهم كلام رب
العالمين، وقد حوى من الأصول الكلية والقواعد العامة التي هي أجل القواعد وأنفعها
وأصحها وأقواها شيئاً كثيراً وعلماً واسعاً غزيراً ويدي لأهل البصائر والعلم من المآخذ

والمسالك والطرق والأصول النافعة ما لا يجده مجموعاً في محل واحد، ومخبر الكتاب يغني عن وصفه، وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مقرباً لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه والناظر فيه وجميع المسلمين بمنه وكرمه، وجوده وإحسانه، وهو خير الراحمين، وصلى الله على محمد، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامع العبد الفقير إلى الله في كل أحواله:

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

